المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السادس بعد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٥ — ١٨ صفر سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

العلم أسلوب من أساليب الكشف عن الحقيقة — حقيقة المادة وحقيقة الحياة . وهو أسلوب أسفر تطبيقهُ خلال القرن ونصف القرن الماضيين ، عن آيات تبهر النفس ، وتعين على تيسير الحياة ، وبناط بها الأمل حين يحزب الأمر ، بكسب الحرب من ناحية ، او الارتفاع بالانسان إلى مستوى أعلى من العيش والتفكر والأخلاق من ناحية أخرى . وعلى أنَّ العلم في العصر الحديث كشف كثيراً مما كان مستسرًّا عن فهم البشر ، منذ قرن أو نصف قرن وحسب ، فان العلماء لا يزالون على عهدنا بهم في كل عصر ، ذوي دعة يتكبون التبجُّح ، ويقبلون على بحوثهم إقبال فيرمّن حين قال : أراني واقفاً على ساحل بحر الحقيقة ولما التقط من درّ حصبائه سوى حجر واحد .

فهم يعترفون بأن الأسرار التي تحصّنهم وتومحه اليوم لم تزل فوق الحصر ، وقد استفتى باحث علميّ منذ عهد قريب طائفة كبيرة منهم ، في ألغاز العلم التي ما فتئت تحيّرهم ، فإذا الكثرة ممن استفتى تقدم الألغاز السبعة التالية .

١ — لغز عصر الجمد

حدث مراراً خلال العصر الجيولوجي الأخير ، المتغلغل مليون سنة في جوف الزمان ، أن غطى مساحات واسعة من سطح الأرض غشاء فسيح كثيف من جمد ، بدأ يتكوّن عند القطبين الشمالي والجنوبي ، ثم جعل يمتدُّ ويتسع ، جنوباً من الشمال ، وشمالاً من الجنوب . ففي القارة الأمريكية ، بلغ الغشاء النازل من الشمال حدود فرجينيا ، وفي أوربا حدود فرنسا

وروسيا . ويذهب فريق من علماء طبقات الارض ، إلى أن كتلة هذا الغشاء من الجمد ، أغرقت الاراضي الواطئة في شمال أميركا الشرقي ، ولكنها عادت فارتفعت فوق سطح المحيط .

وكل غزوة من غزوات الجمد هذه ، استغرقت زمناً طويلاً ، فهلك كلُّ حيّ في المناطق التي شملتها ، أو فرَّ منها ، إن كان قادراً على الحركة ، إلى الاقاليم الدافئة . والغالب ان الاقليم كان في الزمن بين غزوة وأخرى ، معتدلاً في المناطق التي غطّاها الجمد . فترعرع النبات وتكاثر الحيوان وزخرت الحياة بوجه عام .

فما كان الباعث على هذا ؟ وهل يحتمل أن يعود الجمد فيغطي مناطق واسعة من سطح الارض ؟ هذان السؤالان مجتمعان ، هما أحد ألغاز العلم الحديث . ويقول العلماء إنهم إذا أخذوا بالاحتمال الرياضي وحسب ، فالغالب أن يعود عصر الجمد مرة أخرى ، فيرتحل عن المناطق الشمالية البشر والحيوان ، ويقضي على منشآت الحضارة فيها . وعندهم أن الارض تجوز الآن الزمن المتوسط بين عصرين من عصور الجمد ، وأنها جازت منتصفهُ ، أي أنها بلغت أقصى الدفء ، وهي سائرة سيراً بطيئاً في طريق البرد الشديد . بل هم يعتقدون كذلك ، ان الاقليم Climate ما فتيء يزداد برداً ورطوبة ، منذ بضعة آلوف من السنين . ولكن يقابل هذا ، ان انسان العصر الحديث ، أحسن أهبةً من إنسان الكهوف لمواجهة طوارىء البرد الشديد ومكافحة الجمد .

وقد تضاربت الأقوال في تفسير هذه الظاهرة الطبيعية العجيبة . فقد قال بعضهم أنَّ ثمة تحوُّلاً في محور الارض ، أي ان مركز دوران الارض كان في عصر الجمد ، في مكانٍ غير مكانه الآن ، وان أشعة الشمس كذلك ، سقطت على سطح الارض من زاوية غير زاوية سقوطها في هذا العصر ، فأثر ذلك في الاقليم تأثيراً عظيماً . فيردُّ علماء الطبيعة والفلك ، ردًّا قويًّا ، بأن تحوُّلاً من هذا القبيل في مركز دوران الارض يكاد يكون مستحيلاً . وقال فريق آخر إن فعلاً بركانيًّا عنيفاً رفع جبالاً شاهقة فوق سطح الارض في المناطق الشمالية ، فأحدث ذلك برداً شديداً وبدل حالة الاقليم تبديلاً عظيماً . ولكن هذا القول إن صدق على المناطق الشمالية ، فإنهُ لا يفسر ما حدث في النصف الجنوبي من الكرة ، والحاجة إنما إلى تفسير يصدق في الحالين . والعلماء يعتقدون أن هبوط الحرارة ، شمل الارض كلها ولكنه تجلى تجلياً عنيفاً في المناطق الشمالية والجنوبية . فهل حدث شيء في الشمس ؟ هل ثارت فيها سلسلة من الزوابع العاتية ، غطت بعض سطحها ، فأضعفت تأثير أشعتها في جو الارض وسطحها ؟ هذا تفسير ، ممكن ولكنهُ غير مرجح ، أو هل مرت المجموعة الشمسية ، اثناء انطلاقها السريع في الفضاء ، خلال منطقة باردة بالغة البرد في تلك الرحاب

الفسيحة النائية ؟ إن العلم يأبى الأخذ بهذا الرأي . أو هل نقص مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء فضعف فعل الدثار الذي يحفظ حرارتها ويقيها برد الرحاب الخارجية الخاوية ؟ وهذا غير محتمل على ما يقولون . أو هل اصطلح الد والجزر والريح اصطلاحاً ما على إحداث هذه النتيجة ؟ يتعذر على العقل أن يتصور اصطلاحاً من هذا القبيل ، حدث أربع مرات متعاقبة ، وظل قائماً كل مرة ، دهراً طويلاً ، ربما لا يقل عن ربع مليون من السنين . فالجواب عن السؤال : ما سبب عصور الجمد في الزمن الماضي ، وما يحتمل أن يكون الباعث عليها في الزمن المقبل ، لا يزال مكاناً بياضاً في صفحة العلم الحديث .

٢ — لغز الأشعة الكونية

كل بوصة مربعة من سطح الأرض ، عرضة كل ثانية من ثواني الليل والنهار ، لأشعة خفية قوية تنطلق من رحاب الفضاء ، فتصيب سطح الأرض فيما تصيبه من الأجسام التي تعترض سبيل انطلاقها . وطاقة هذه الأشعة عظيمة تبلغ الوف الوف الوف من وحدات الطاقة الكهربية . ومع ذلك فانها لا تحدث من الأثر البادي ما يستوقف النظر . والعلماء لم يتبينوها إلا من أثرها في تمزيق بعض ذرات المادة إما على سطح الأرض وإما في الغلاف الغازي الذي يحيط بها . وقد يبلغ من شدة وقع الأشعة في القوة مبلغاً عظيماً لا يكاد يتصوره عقل . فحين تنشق ذرة ما ، بفعل من هذا القبيل ، وتنحل وتنطلق أجزاؤها في الفضاء ، فقد تكون سرعة بعضها قريبة من سرعة الضوء ، وهي ١٨٦ الف ميل في الثانية .

فهذه هي الأشعة الكونية [1] وهي من بعض النواحي قريبة الشبه بالأشعة السينية ، ولكنها تختلف عنها في أن بعض الأشعة الكونية تحمل شحنة كهربية موجبة ، على حين أن الأشعة السينية ، هي أشعة ضوء شديدة النفاذ ، ولا تحمل شحنة كهربية ما . ولما كانت الأرض في منزلة مغنطيس كبير دائر ، فان الأشعة الكونية الوجبة الشحنة ، تنحرف حين تدخل جو الأرض ، بتأثير مغنطيسية الأرض ، فتميل إلى الانحراف نحو قطبي الأرض المغنطيسيين . وهذا هو أحد الأسباب ، التي تجعل قوة الأشعة الكونية متفاوتة بتفاوت مكان الراصد على سطح الأرض . ويبدو أن الأشعة تأتي من الغرب أكثر مما تأتي من الشرق — في نصف الكرة الشمالي — ولعل هذا مرجعه إلى الانحراف المغناطيسي لأزمقر القطب المغنطيسي في مكان ما في شمال القارة الأمريكية . ولما كان الهواء يمتص جانباً كبيراً من هذه الأشعة فهي أقوى في طبقات الجو العليا منها على سطح البحر . وقد وجد الباحثون في

(١) راجع كتاب « آفاق العلم الحديث » فصل « الاشعة الكونية » صفحة ٦٤

العهد الأخير شيئاً من التفاوت في قوتها بتفاوت خطوط العرض والطول

والرأي الشائع أن الأشعة الكونية ينحل بعضها ، حين تدخل جو الأرض فتتحول إلى دقائق تعرف الدقيقة منها باسم «ميزوترون» ، ومدة حياة هذه الدقيقة غاية في القصر وربما لا تزيد على بعض ثانية . ولكن « الميزوترون » متصف بقدرة خارقة على النفاذ من الأجسام. فهو يستطيع أن ينفذ من لوح من الرصاص سمكه بضعة أمتار ، مع أن طبقاً رقيقاً منه يحجب الأشعة السينية . وحين ينحل « الميزوترون » تتكوّن منه — في بعض الرأي — دقيقتان غاية في الصغر يطلق على أحدهما اسم « الكهيرب » ، والآخر اسم « الترينو ». والترينو جسم فرضه العلماء فرضاً ، ولم يقم دليل على وجوده المادي بعد .

وعلى قدر ما يسبر العلماء غور الأشعة الكونية ، يزدادون إيماناً بما لها من شأن عظيم فهي تهشم الذرات حين تصدمها في كل برصة مكعبة من الفضاء ، ولذلك فلا بد من أن يكون لها أثر في أجسامنا . فماذا تفعل فيها ؟ إن قوام كل عامل من عوامل الوراثة في الصبغيات (الكروموسومات) — بحسب الرأي الحديث — جزء مفرد من البروتين . فمن الجائز أن يكون للأشعة الكونية أثر في هذا البناء العضوي . وإذا حدث تغير ما في بناء عامل الوراثة حصل ما يعرف في علم الوراثة بالتحول الفجائي . والتحول الفجائي لم يزل خير تفسير لتطور الأحياء . طبعاً ان القول بتأثير الأشعة الكونية في عوامل الوراثة داخل في باب التخمين. وعلماء الأحياء لا يقرونه . ولكننا نعلم ان الأشعة السينية ، على ضعفها بالقياس إلى الأشعة الكونية ، تؤثر في عوامل الوراثة ، وتحدث في بعض الأحياء تحولات فجائية عجيبة . وقد جرب ذلك بذبابة الفاكهة (دروسوفيلا) تجريباً خاضعاً لقواعد البحث العلمي المحكم . وقد ذهب أحد الكتاب العلميين الذين ينحون نحو الفلسفة إلى القول منذ سنوات ، بأن الكرة الأرضية جازت خلال انطلاقها في الفضاء مناطق تكثر فيها الأشعة الكونية ، وأخرى تقل فيها هذه الأشعة ، ففي المناطق الأولى كان التطور العضوي وظهور الأنواع الجديدة سريعين كل السرعة وفي المناطق الثانية ، كان التطور العضوي بطيئاً البطء كله .

وقد اختلف العلماء في منشأ هذه الأشعة ؟

بنى مليكن نظريته ، على أن هذه الأشعة هي اشعاعات كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) أو فوتونات من قبيل الأشعة السينية وأشعة غمّا . ولكنها أكثر من هذه الاشعاعات أمواجاً وأشد اختراقاً للاجسام . وكان هذا الفرض طبيعيًّا لشدة نفوذ الأشعة ، ثم عمد مليكن إلى الرياضة والطبيعة معاً ، فقال إن أشعة لها نفس قدرة النفوذ التي تتصف بها الأشعة الكونية ، يمكن أن تتولد إذا اجتمعت أربع ذرات من الايدروجين ، واتحدت

فتكون من اتحادها ذرة من الهليوم . فالطاقة التي تنطلق من هذا الاندماج ، هي في قوتها وقدرتها على اختراق الاجسام ، من رتبة الأشعة الكونية .

لذلك أشار مليكن الى شعاعة منها بقوله « إنها صراخ ذرة عند ولادتها » في رحاب الفضاء ، فكان قوله هذا نغماً في بوق أهاب بالعلماء الى البحث

وعلى هذا القياس قيل ان تولد ذرات العناصر التي تفوق الهليوم في وزنها الذري — كالاكسجين والسليكون — يلتئم أشعة كونية ، من درجات متفاوتة في قدرتها على اختراق الاجسام المادية ، وان هذه الذرات تتفاوت بفعل التجاذب ، فتتكوّن منها السدم ثم النجوم . وتشع السدم والنجوم مادتها بتحولها الى ضوء وحرارة ، وتنطلق الطاقة الشاسعة منها في رحاب الكون ، فتتحوّل في خلال رحلتها الطويلة — وهذا فرض فلسفي — الى بروتونات وكهيربات ، ومن هذه الدقائق تتألف ذرات الايدروجين ومن اجتماع ذرّات الايدروجين تتكوّن ذرّات الهليوم فذرّات عناصر أخرى وتنطلق أشعة ، وكذلك ترى الكون بحسب رأي مليكن ، يبتدىء من حيث ينتهي

ما كاد مليكن يطلع بنظريته هذه ، حتى قال جينز برأي يخالفها . فالأشعة الكونية ، في نظره ، رسائل تنبىء بفناء المادة وتلاشيها ، لا بتولدها . واتخذ من الحساب الرياضي أساساً لتأييد القول المشهور في علم الطبيعة ، وهو أن الكون يتدرّج انحطاطاً في مقدار الطاقة الفعالة التي فيه ، الى حيث لا رجعى . فالكون بحسب ناموس « الترموديناميكس » الثاني ، وحساب جينز ، سائر إلى نهاية ، ولا عود له منها .

ثم جاء باحث طبيعي فرنسي شاب يدعى دوفيابيه ، فاقترح نظرية أخرى لتفسير أصل الأشعة الكونية ، ولكن الأصل الذي بنى عليه نظريته هو أن الأشعة الكونية ليست مؤلفة من فوتونات ، بل هي كهيربات تنطلق من الشمس الى الأرض ، من مناطق عالية الضغط الكهربائي في الشمس ، فيدنو بعضها من جوّ الأرض فيؤثر في جوّها ، فيحدث الأضواء القطبية الباهرة ، ويمزّق ذرّات الغازات في الهواء فتتطاير شظاياها .

ولعل أغرب الآراء التي اقترحها العلماء لتعليل نشأة الأشعة الكونية ، هو رأي الأب لومتر الفلكي الطبيعي البلجيكي وهو صاحب الرأي القائل بأن الكون كان من ألوف ملايين من السنين ، مركزاً في حيز ضيق ، ثم اختلّ استقراره الداخلي ، فانفجر فجأة ، فانتثرت منه السدم فأخذت تبعد بعضها عن بعض ، وما فتئت تتباعد . على انه يقول ان الأجزاء التي انتثرت من الكون عند انفجاره لم تكن سدماً ونجوماً فقط ، بل كان منها دقائق صغيرة جداً ، ذرّات وكهيربات وفوتونات ، وعنده ان هذه الدقائق الناهية في الصغر ، التي ما فتئت

تحجب رحاب الفضاء من بداية الكون ، هي الأشعة الكونية .

فهل ثمة سبيل الى معرفة الحقيقة في طبيعة هذه الأشعة ؟ وهل هي فوتونات كما يقول مليكن وجيمز ، أو كهيربات كما يقول دوفيليه ، أو مزيج من أشعة ودقائق مختلفة كما يقول لومتر ؟ ولا يزال البحث مستمرًّا ، ولكن ليس ثمة ما يشير إلى أن اللغز قد حل .

٣ — لغز الزكام

ان الزكام أكثر العلل التي تصيب الناس شيوعاً وأشدها غموضاً وتحييراً للعلماء . وعلى أنه يصيب عشرات الملايين من الناس كل سنة ، وينزل بالصناعة والتجارة خسارة تقدَّر بمئات الملايين من الريالات ، لتغيب المزكومين عن أعمالهم ، وتثقيله أحياناً على أخرى بعضها مميت ، فان العلم قلما يعرف عنه شيئاً ، مع ان المنشآت العلمية انفقت في العهد الأخير أموالاً طائلة في سبيل البحث عن سببه ومنشاه وكشف طرائق لعلاجه والبرء منه .

والفرض العام في دوائر العلم والطب ، ان سبب الزكام « فيروس » راشح ، ولكن الدليل على صدق هذا القول ليس قاطعاً . ورجال الطب والبحث الطبي يعرفون أن تعرض الناس للاصابة بالزكام يختلف باختلاف اناس . وقد يكون هذا موروثاً . وقد حضَّرت أنواع شتى من اللقاح ولكن كفة الدليل على وقائها بالغرض مرجوحة لا راجحة .

ومن الأقوال الشائعة عن ميكروب الزكام إنه يحل بساحة كل امرىء ، ان كانت الحوضة غالبة على جسمه ، فلكي يتجنب الزكام أو يدفعه عنهُ عليه أن يتخذ من المواد القلوية ما يعدل هذه الحوضة ويميل بجسمه إلى القلوية . على أن العلم يقول إن هذا الرأي هراء لا طائل تحته . فلو زادت الحوضة في الجسم زيادة يسيرة ، لغلبت الميكروبة على الجسم ولتبعتها الوفاة على الأثر . ومن حسن الحظ أن الأدوية التي توصف لجعل الجسم «قلويًّا» لا تؤثر في الجسم تأثيراً ما من هذا القبيل ، لأنه لو مال الجسم إلى « القلوية » ميلاً يسيراً ، لأصيب بالتشنج ولكان لاحتمال الموت كبيراً .

ومع أن العلم لم يكشف سر سبب الزكام ونشأته فانه هيأ وسائل شتى لمنعه كاستعمال المصابيح التي تشع ضوءًا يقتل بحراثيمه المنطلقة في الهواء ، ولكن هذه الوسيلة تدخل في باب الوقاية لا في باب العلاج .

على أن العلماء مجمعون على ان خير ما يتقي به الزكام هو العافية . وهم يشيرون على من يدركه الزكام أن يلتزم الفراش ، وإذا شاء أن يزدرد ما شاء من الحبوب ، وأن يغسل حلقه بما شاء من المحاليل ، فله أن يفعل ذلك ، ما زال يفهم أن كل ذلك إنما يخفف من أعراض الزكام وحسب ، فليس لهذه العلة الشائعة علاج شافٍ معروف .

فؤاد صروف

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرف الانسان عن جسمه ونفسه في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

• مَن الملاحظ أن الحيوانات ذوات الوبر يقل وبرها صيفاً ويغزر شتاء وهواة الكلاب ومربو الحيوانات ذوات الوبر الغزير، يقصون أو يجزون وبرها قبل الصيف، لا لمجرد استغلال صوف الغنم مثلاً، بل لتخفيف الوبر لكي يسهل تصريف الحرارة من الجسم بالإشعاع وتوصيلها إلى خارج الجسم. ولهذا السبب نفس شعر الخيل والحمير والجمال وغيرها، وصائدو حيوانات الفراء يعرفون ذلك فيصطادونها شتاء وصانعو الفراء من جلد الأرانب يصنعونها من جلدها في الشتاء للسبب عينه.

عرف الانسان بالخبرة قيمة الملابس صيفاً وشتاء وتكوّنت هذه الغريزة عند الشعوب بتوالي العصور ثم تفنن في صنعها وزينتها ونالت السيدات في تنويعها. وفي البلاد الباردة نجد الشعوب ترتدي الملابس المحكمة وتصنعها من الصوف. وفي البلاد الحارة ترتدي الملابس الخفيفة غير المحكمة لتسهيل تخلل الهواء فيها لتجفيف العرق وتلطيف حرارة الجسم. وعند ما تعوّدت شعوب البلاد الحارة لبس الملابس الأوربية، وعند ما حلّ سكان البلاد الباردة في البلاد الحارة واستمروا على لبس ملابسهم الأصلية، وجدوا عدم ملاءمتها للجو الحار، فبحث في ألوانها لمعرفة أي الألوان أنسب للبلاد الحارة. وعلى هذا نرى أن حلة السهرة المعروفة باسم Smoking قد استبدل بنسيجها الأسود تيل أبيض. ثم ابتدعوا الملابس القصيرة غير المحكمة «شورتس» المصنوعة من النسيج الخفيف، والغرض من ذلك تسهيل تصريف الحرارة بتخلل الهواء داخلها وبتعرض جزء من أطراف الجسم للهواء حتى تتصرف الحرارة من الجلد بواسطة الإشعاع وتبخر العرق. ونرى ذلك نفسه يتبع في الألعاب الرياضية شتاء لأن حركة العضلات تولد حرارة زائدة، ولا بد من مخرج لها لتكثيف البقية حرارتها وتجعلها ثابتة قريبة من الحرارة الطبيعية الانسان، ولهذا السبب يلبس ممارسو الألعاب الرياضية

أثناء لعب كرة القدم والتنس وغيرها ملابس اللعب الخاصة ، وهي لا تغطي الجسم كله على نظرية لبس « الشورتس »

• يلاحظ عند انتقال إنسان من جوٍّ حار إلى جوّ بارد حصول رعشة في العضلات قد تكون موضعية في الفك وقد تعم الجسم ، وهذه الرعشة هي مشاركة العضلات في مساعدة على زيادة الحرارة ، فيزيد عملها لتتولد حرارة أكثر ، وهي ظاهرة من ظواهر تكييف البنية للمحافظة على حرارتها حتى تقاوم البرد . وترى الإنسان يفرك يديه فيحرك عضلات الذراعين ليزيد عمل عضلاته فيزيد تولد الحرارة . ولكن هذه الرعشة أو الرجفة تعد منبئاً لنا بأن حرارة جسمنا تأثرت بالبرد ، وأن العضلات أخذت تعمل لدرء ضرره ، وتنبهنا لكي نحترس بوسائل أخرى للمحافظة على حرارة جسمنا ، لأننا لو تركنا الحبل على الغارب وشملت الرجفة عضلاتنا كلها وزادت ، انتهى بها الحال إلى أن تخور . فلهذه الرعشة ثلاث خواص : الأول مساعدة البنية على التكييف بحرارة الجو البارد ، ونحن نقلدها بفرك أيدينا ، وبتحريك أرجلنا . والثانية : إنذار البنية لنا بالاحتراس ، والثالثة : أن الرعشة إذا زادت وعمت الجسم كانت إنذاراً آخر بأن البنية أوشكت أن تخور وتضعف أمام البرد القارس . وكل هذا التكييف في حد المعقول ، إذ لا يمكن أن يستمر تكييف البنية مدة طويلة في جو غير ملائم ، ومن هنا يحدث أكثر الأخطار من تعرض الإنسان مدة طويلة لبرد قارس أو لقيظ لافح . وإذا نقصت حرارة الجسم بسبب البرد فإنها ترجع تدريجاً ببطء يتناسب مع الدرجة التي هبطت إليها وعرف بالتجارب أن من تهبط حرارته البدنية إلى ٣٥ درجة مئوية ، بسبب البرد وينقل إلى غرفة دافئة ويدثر باحتراس ترتفع درجة حرارته تدريجاً وتعود إلى الحالة الطبيعية في وقت قصير ، لأن لذلك عاملين يساعدانه على ارتفاع الحرارة ، الأول : حرارة الحجرة وتدفئة الغطاء ، والثاني : عامل البنية لإنتاج الحرارة ، لأن البنية تحتفظ بمقدرتها على توليد الحرارة ما دامت حرارة البدن لا تقل عن ٣٢ درجة مئوية . وأما إذا انخفضت الحرارة إلى أقل من ٣٢ درجة ، ووضعنا المريض في غرفة دافئة ودثرناه فإنه يتطلب وقتاً طويلاً لاستعادة حرارته الطبيعية ، إذ التدفئة والتدثر هما العاملان الوحيدان لكي تصل الحرارة إلى ٣٥ درجة ، فيظهر عامل مقدرة البنية على توليد الحرارة .

• وفي الحر يحصل عكس ذلك فإذا زاد الحر فالبنية تقاوم أيضاً ارتفاع الحرارة وتكيف بوسائلها لتنقص عملية توليد الحرارة ، وتزيد عمليات تصريفها وفقدها ، فيحدث ارتخاء في العضلات ويكثر العرق ، أي بعكس ما يحدث من مقاومة البرد . وتنجح هذه الوسيلة إذا ما كانت حرارة الجو لا تزيد عن ٣٧ درجة أي عن درجة حرارة الجسم العادية ، وإذا

ما زادت حرارة المكان وارتفعت إلى أكثر من ذلك وبلغت الأربعين وزيادة ، فإن انعدام توليد الحرارة من البنية لا يكفي وحده لمقاومة حرارة المكان والجو ، فيستعين المرء بوسائل أخرى من وسائل فقد الحرارة البدنية وأهمها العرق الذي يزيد فيتبخر على سطح الجلد ، وكذلك نشاط التنفس ، وإذا لم تتمكن وسائل تصريف الحرارة من خفضها زادت الأعراض شدة ويحدث مرض الإعياء من الحر . والتبخر كما هو معلوم يمتص الحرارة ، ويكفي أن يضع المرء مادة من المواد السريعة التبخر على جلد يده مثل الكحول أو الأثير ليلاحظ أن يده تبرد أثناء تبخر هذه المادة . وفزارة العرق في الصيف معروفة للجميع لأنها وسيلة طبيعية من وسائل تخفيض حرارة الجسم في الصيف . ومن المشاهد أن العرق يتبخر بسرعة في الجو الجاف أكثر مما يحدث في الجو الرطب ، ولذا تتكيف البنية لمقاومة الحر بسهولة في الجو الجاف ، أكثر مما تتكيف في الجو المشبع بالرطوبة .

• من ملطفات الحرارة النسيم فانه يساعد أولاً على تجفيف العرق وثانياً ينعش الجسم ، ولذا تغزل فيه كثير من شعراء البلاد الحارة في شعرهم وأغانيهم في مواضع عديدة وحلوه سلاماً وأشواقاً — ونلاحظ ان أكثر الناس يستعمل الروحة في الصيف لاحداث نسيم خفيف وتبديل في الهواء لتلطيف حرارة الجسد وتجفيف العرق . وقبل أن تخترع الروحة الكهربائية كانت تستعمل المراوح اليدوية من قديم الزمان وتوجد في الآثار صور تدل على وقوف حملة المراوح بجوار الملوك للتهوية على وجوههم — ولا تزال المراوح اليدوية تستعمل للآن وبأشكال متنوعة في جميع مناطق البلاد الحارة ، وتفننوا في صنعها ، من أبسطها وأرخصها كالمصنوع من زعف النخيل إلى أثمنها وأغلاها كالمحلى بالنقوش والصور والمزين بريش النعام ، بل والمرصع بالأحجار الكريمة وكانت من حلي السيدات كما أصبحت الآن من التحف المنزلية الثمينة التي تحلى بها الحجرات وتعرض في المتاحف .

• ومن الوسائل التي يستعملها ذوو اليسار في الصيف لتلطيف الحرارة ولانعاش الجسم ماء الكولونيا والروائح العطرية الأخرى ، وفائدتها أن المواد الكحولية والطيارة التي بها تتبخر بسرعة فتمتص الحرارة — ورائحتها تنعش حركة التنفس — ومن ملطفات الحرارة الضارة النافعة معاً ، شرب الماء البارد وتناول المثلجات . على ان ضررها يكون أكثر من نفعها إذا شرب الماء بكثرة أو تناول المرء المثلجات بغير اعتدال لأنها تحدث نزلات معدية معوية واضطرابات هضمية — فالماء اذا استعمل من الظاهر رشاً أو استحماماً يلطف الحرارة وينعش الجسم وينبه أعصاب الجلد وينشط التنفس . وأما اذا شرب فانه يمتص الحرارة من المعدة ويلطف الحرارة قليلاً ثم يمتص فيزيد العرق والعرق كما قلنا يتبخر ، ويكثر العطش

في الصيف من كثرة العرق ولذا نجد في البلاد الحارة كثرة استعمال المشروبات المرطبة والمثلجة مثل القازوزة وعصير الليمون وعرق السوس وما شابهها . ويعد من الاحسان والعطف تسبيل الماء وبناء أماكن الشرب الخاصة المعروفة بالسبيل في الطرقات بل ربما كان الشرقيون أول من فكر في عمل اناء حجري صغير للكلاب بجوار السبيل — غير أن شرب الماء بافراط مضر كما قلنا لأنه يحدث اضطرابات في الهضم، والماء الذي نشربه يمتص جزء بسيط منه في المعدة وأغلبه يمتص في الأمعاء الدقاق ويمضه في الأمعاء الغلاظ .

• تصرف الحرارة وتفقد من الجلد بثلاث وسائل الأولى: امتصاص الحرارة أثناء تبخر العرق ويحدث هذا في الهواء الطلق بسهولة — ويحدث في الهواء المحبوس مثل هواء الغرف وغيرها بصعوبة — كما يحدث في الجو الجاف أكثر مما يحدث في الجو المشبع بالرطوبة — والنسيم يسهل تبخر العرق . والثانية بتوصيل الجلد لحرارة الجسم الى ما يجاوره . فالملابس تدفأ بملامستها الجسم وفي تدليك الجسم بالماء أو بالكولونيا أو الاستحمام بالماء البارد أو عمل مكمدات باردة أو ما شابهها يوصل الجلد الحرارة اليها فتنقل حرارة الجسم والثالثة بطريقة الاشعاع أي باشعاع الحرارة في الهواء ولا يمكن هذا إلا إذا كانت حرارة الجو أقل من حرارة الجسم — ويعد تبخر العرق أهمها . وعرف بالتجارب الفزيولوجية أن تبخر ١٢٠ جم من العرق يخفض حرارة الجسم درجة واحدة مئوية — وقد استعان الطب العلاجي بهذه الوسائل الطبيعية وقللها واستعمل النافع منها في علاج الحميات

إذا وجد الانسان في مكان معتدل الحرارة والرطوبة بأن تكون حرارته نحواً من ١٥ درجة، ورطوبته نحواً من ٥٠ في المائة والتهوية فيه معتدلة أيضاً وليس بها تيارات هواء — وملابسه عادية لا هي بالثقيلة ولا هي بالخفيفة — فإنه يفقد من حرارة جسمه الزائدة عن احتياجاته بالوسائل المختلفة الخاصة بتصريف الحرارة من البيئة بالنسبة الآتية:

٤٠ في المائة بالإشعاع
٣٠ » بتوصيل حرارته إلى ما جاور جسده كالملابس والكراسي والفراش وما يمسكه في يده من الكتب والأواني والأدوات إلى غير ذلك.
٢٠ » بتبخر العرق من جلده وبالتنفس .
٧ » جزء بسيط مع البول والبراز .
٧ » جزء آخر بسيط بتدفق الهواء الداخل إلى الرئة من الأنف والحلق والقصبة الهوائية وتدفئة الغذاء البارد وما يشرب بارداً أثناء تناوله .

ويعد العرق أهم وسيلة من وسائل فقد الحرارة وتكييفها في البلاد الحارة ويعد فقدها وتكييفها بالوسائل الأخرى قليلاً نسبيًّا ويكاد يكون قليل الأهمية .

• كلنا يشكو من لزوجة العرق في الاسكندرية وأمثالها . وسئلت كثيراً عن سبب ذلك. والسبب أن جو الاسكندرية مشبع بالرطوبة كما يلاحظ من الجدول الآتي وقد قورنت فيه ثلاثة أيام متفرقة كانت حرارتها متقاربة .

التاريخ	اسم المكان	الحرارة النهاية الصغرى	الحرارة النهاية الكبرى	متوسط الرطوبة
١٢/٤/٣٤	اسكندرية	١٤	٢٩	٧٣
»	مصر الازبكية	١٤	٣٠	٥٣
»	مصر الجيزة	١٢	٣٠	٧٣
»	حلوان	١٤	٣٠	٦٦
٦/٧/٣٤	اسكندرية	٢٢	٢٩	٨١
»	مصر الازبكية	٢١	٣٤	٦٥
»	مصر الجيزة	١٩	٣٣	٦٢
»	حلوان	٢١	٣٤	٥١
٢١/٧/٣٤	اسكندرية	٢٢	٢٩	٧٣
»	مصر الازبكية	٢٢	٣٤	٦٣
»	مصر الجيزة	٢٠	٣٣	٦٥
»	حلوان	٢١	٣٣	٥٤

وأقل بلاد القطر المصري رطوبة هي الواحات الداخلة واسوان ولذا وليس من المعقول أن يصطاف فيها الانسان فانها أماكن للاشتاء ، لان الحرارة بها شديدة جداً في الصيف .

***

ويرى من هذا الجدول أن الاسكندرية أكثر رطوبة من مصر ومن الجيزة ومن حلوان — وان الحرارة في الاسكندرية أقل في هذه الأماكن خلال الأيام التي اتخذناها مثلاً . وحيث إن العرق لا يتبخر بسهولة في الجو الرطب، فانه يبقى فوق الجلد ويختلط بالافرازات الجلدية الأخرى ويصبح لزجاً .

« يتبع »

المـــرأة

ثمّ المرأة

أمِنْكِ برقٌ أبيت الليل أرقبُه كأنّه في عِراض الشام مصباح ؟

نابليون : مدام : اني لا أحب أن تتدخل المرأة في السياسة.
أوجيني كونتيوروسيه : كيف الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعي
في بلد تحتقر فيه رؤوس النساء ، أن يكون
لهن الحق في أن يسألن عن السبب في ذلك .

وغالب ظن انه في بلد يعيش نساؤه مستعبدات أو في حكم المستعبدات ، يحملن للمستقبل ويعملن للحاضر ويقمن بين الحقول والمزارع بأعمال لا يصح أن يقوم بها غير دواب الحمل، وتؤكل أموالهن وتغتصب حقوقهن ويشرع لهن ولا حق لهن في الاحتجاج ، ويرسم حاضرهن ويخط مستقبلهن ، ولا يمثلن في ناحية واحدة من نواحي الحياة الاجتماعية ، ويخضعن لقانون الخراج في أن يستعمل الشطر الأغلب من شطري الجمعية حق الأقوى ، حق المتسلط ذي الارادة المطلقة في إقامة الحدود التي لا ينبغي أن تتخطاها حقوق المرأة ، . . . غالب الظن أن يكون للمرأة في مثل هذه الجمعية الحق كل الحق في أن تسأل عن السبب في ذلك ؟

من حق المرأة في بلد كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصة حين ترى أختها الأوربية تشارك في الحرب وفي المصانع الحربية وتقطع البحار وتجوب القفار وتعمر المصانع والمعامل وتشترك في معارك الأدب والعلم والاجتماع والفن ، وحين ترى أختها الروسية تضحي بدمها في سبيل إنقاذ ستالينجراد تحت جنح الليل وفي غمار الثلوج وتحت نيران العدو وعلى مياه الفولجا الباردة المقرورة .

من حق المرأة في بلد كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصة عند ما ترى ان أبناء الاوربيات اللاتي ذكرنا هن أنجب من أبنائها وأنجح في الحياة وأقوى شكيمة وأثبت خلقاً وأفرع رجولة . فمن أين أتى ذلك ؟ أظن انه من تكرار الحقوق المدنية على المرأة الأوربية، أن ذلك العمل الفذ الذي قام به أبناؤها ، وليس له في التاريخ مثيل منذ كان

للانسان تاريخ. أظن انه آتٍ من قبوع المرأة في عقر دارها وعدم تمتعها بالحقوق السياسية والاجتماعية، على المبادئ التي يريد أن يقيم عليها بعضنا حياة المرأة في بلادنا وفي الشرق.

كيف تأتى للمرأة الاوربية أن تربي أبناءها هذه التربية الاستقلالية الحرة؛ ولم يمنعها التمتع بحقوقها، التي أقول انها طبيعية، عن ذلك؟ كيف نشأت الرجال الذين يريدون التسود على كرة الأرض، وهي بين جدران المصنع وفوق ظهر الباخرة وبين أجنحة الطائرة وفي القفار والصحاري والغابات. كيف تأتى لها ذلك؟ أمن أجل انها من طينة غير طينة البشر أجمعين؟ هل تأتى لها ذلك وهي في حجرة النوم وفي المطبخ؟ كلا أيها السادة: تكلموا فيما تحسنون.

لماذا يكون العمل والحرية والانتاج والمشاركة في بناء المدنية وفي الحرب والصناعة، فضيلة في المرأة الاوربية، ورذيلة في المرأة الشرقية؟ أفمن حق المرأة الاوربية أن تكون حرة، وليس ذلك من حق المرأة الشرقية؟ أخلقت الأوربية مختصة بهبة الهية فتعرف اللذة والألم، وخلقت المرأة الشرقية مكفوفة عن هذه الهبة فلا شعور لها باللذة ولا إدراك عندها للألم؟ هل كوّنت نفس المرأة الأوربية ولها المشاعر والانفعالات والعواطف والحب والبغض، وكوّنت نفس المرأة الشرقية محجوبة عن كل ذلك؟ سبحانك موزع الحظوظ.

***

لا يزال منذ أن أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» في الموقف نفسه: فريقٌ يقول أن المرأة للمنزل؛ وفريقٌ يقول إن المرأة للحياة. لا يزال البعض منا في نفس الموقف الذي وقفه «روسو» من نساء فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر، تؤثر فينا التقاليد التي كانت طابع الحياة القديمة والتي ما عرفت معنى الحرية ولا معنى الحقوق الإنسانية. فإن روسو بالرغم مما أشاد بالحق السياسي وبالحرية وبالرغم من أنه قال إن تلك الحقوق طبيعية لا تسقط عن الإنسان ولا تسلب منه، حتى ولو تعاقد هو نفسه على حرمانه منها، وقوله إن حق التصويت حق عام لكل أفراد الجمعية، فقد ذهب إلى جانب هذا مذهباً عجيباً إزاء المرأة فلم يسلّم بأن لها حقاً يقال له الحق السياسي.

لقد كتب روسو كثيراً عن المرأة، وفصّل الفوارق التي تفصلها عن الرجل. ولكن لم يزل كاتب من كتّاب القرن الثامن عشر إلى ذلك الدرك الذي انحدر فيه روسو إذ قال: «خلقت المرأة لتكون ملهاة الرجل». وقال أيضاً — «ينبغي أن يكون تعليمها متصلاً بحاجات الرجل؛ فتكون له تسلية وفائدة وموضعاً لحبه واحترامه؛ وتربي أولاده صغاراً

وتعنى بهم كباراً ، وتبذل لهم النصح وتتفجهم بالعطف ، حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة. كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات يجب أن تتعلم المرأة من الصغر ».

هذا المذهب القديم لا يزال طابع الفكر عند الكثيرين من أنصار التقاليد العتيقة في هذه البلاد وفي كثير من البلدان الشرقية ، وبخاصة العربية منها . غير أن الفرق بين ما كتب في أواخر القرن الثامن عشر في أوربا ، وبين ما يكتب عندنا في أواسط القرن العشرين ، إن سفسطتنا قد بلغت من الضعف ، أضعاف ما بلغ كلام روسو من سوء الفهم .

***

بلغت السفسطة عند بعض الكتاب الذين تصدوا للكلام في المرأة والحياة العامة مبلغ أن فرض بعضهم حالات لا وجود لها في الطبيعة ولا حقيقة لها إلا في الخيال المحض ، وبنى على هذه الفروض وتلك الخيالات القضايا واستخلص النتائج ، ورح يناضل عن وجهة من النظر لا علاقة لها بهذه الفروض على أطلاق القول .

قال بعضهم : « لو أن عالم الانسان كان كله ذكوراً ، أو أنه كان كله اناثاً ، أو كان شيئاً بين هذين : لا هو بالذكور الصرف ولا بالاناث المحض ، — أريد أن أقول : لو أن الانسان لم يخلق هكذا مؤلفاً من جنسين مختلفين ، بل كان جنسه جنساً واحداً ، — أكانت حياته هي هذه التي نراها حياة مليئة بالشر والاضطراب ، أم تكون حياة وادعة مطمئنة مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ؟»

« أعتقد أن تسعين في المائة أو أكثر ، من هذا الويال الذي يعانيه الانسان ، سببه مجموع أمرين : أحدهما أنه خلق من جنسين مختلفين . والآخر أنه أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية ، التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع ، ليتعاون الفريقان على المرافق الحيوية ، وبكاتلا على بقاء النسل وحفظ النوع ، أو قل أن سببه هو الأمر الثاني فقط » .

فانظر أي فرض يفرضه الكاتب وأية مقدمات يتخيل لموضوع فرضت منه الطبيعة منذ ملايين عديدة من السنين . يريد أن يتخيل ثلاثة عوالم : الأول عالم كله رجال . والثاني عالم كله نساء . والثالث عالم كله خناث : نصفه خناث إلى الذكور والنصف الآخر خناث إلى التأنيث . وكل هذه العوالم الخيالية عنده تكون عوالم مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ! أما العالم الذي نصفه رجال ونصفه نساء ، فهو السبب في تسعين في المائة أو أكثر من هذا

الوبال الذي يعانيه الانسان ، وان الانسان أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع، إلى آخر ما يقول .

أما الطبيعة فلم تخطىء قيد شعرة . فقد خلقت من الحيوان ذكراً وأنثى وبثت فيه الميل الجنسي ليكون ذلك حافزاً لحفظ النوع وتتالي الحياة على وجه الأرض . قاعدة لم تحد عنها الطبيعة الا في الحيوانات الدنيا التي استعاضت عن التبادل الجنسي فيها بالتكاثر بالانقسام أو بالتبرعم . وإذن يكون الخطأ في الشرائع التي نظمت هذه العلاقة على غير قاعدة طبيعية . هذا ما تسوق اليه المقدمات التي ساقها ذلك الكاتب .

ثم إن القول بأن خلق الانسان من جنسين خطأ سافى إلى الوبال الذي تعانيه ، لو أنك حللته تحليلاً منطقيًا لبان لك أمران : فاذا كان القائل به من الدهريين لدل ذلك على أن علمه بالطبيعة ناقص وفهمه لحقائق الحياة من الناحيتين الحيوانية والاجتماعية بعيد عن الاستواء. وإذا كان من المتدينين كان ذلك اعتراض على الخلق وحكمته لا يصدر إلا من متورط إلى الكلام في ما لا يعلم . وإذاً يكون مجمل ما قال ذلك الكاتب ان الشرور التي وقع فيها العالم سببها أن الشرائع نظمت علاقة الرجل بالمرأة تنظيماً جرّ علينا ذلك الوبال . لأن الطبيعة نظمت الخلق على قاعدة أن يكون فيه ذكر وأنثى ؛ فلا يعقل أن تجعل للانسان دون سائر الاحياء العليا لغة أخرى غير لغتها، ومنطقاً آخر غير منطقها .

ثم انظر اليه كيف يقول : « لم تخلق المرأة لتكون للرجل شغله الشاغل في هذه الحياة فاذا ما حارب ، كان في خبيئة قلبه أن سيرقى منصباً أو ينال رتبة ، فيفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها . وإذا ركب البحار وخاض الغمار كان في قرارة نفسه إنه سيصبح ذا ثراء وفير وخير كثير ، فتزدلف اليه المرأة، وإذا ما سعى ليكون رئيساً عظيماً أو مديراً كبيراً أو وزيراً خطيراً، كان أكبر همه فيما سعى اليه ، أن يحظى برضاء المرأة وينعم بتودد المرأة » .

« لم تخلق المرأة ليعبدها الرجل أو يناغي لها غلاماً يبلغ درجة العبادة أو يزيد . أما تراه كيف يركع لها في خشوع المتبتل وصغار المستعبد إذا أقبلت ، وكيف يلمس أناملها وقد وضع يده على قلبه يمسكه أن يخر تحت قدميها ، وكلنا يعلم إن هذا تصنع زائف ؛ وإنه لا يتفق وما يعاملها به في ناحية أخرى ، حيث يصب عليها جام غضبه ويذيقها العذاب ألواناً حين ينتهي أوبه منها » . اه

صورة لم تخلق إلا في مخيلة الكاتب ، وأوهام لم يقم عليها أي مجتمع إنساني مذ كان الانسان مجتمع . الرجل يعمل ويكد ويحارب ويقيم المدينة ويقطع البحار ويجوب القفار ،

ويمشي على الرمضاء صيفاً ، وعلى الزمهرير شتاء ، لماذا ؟ ليفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها ويحظى برضاها وينعم بتودّدها ، فاذا أقبلت ورضيت وتودّدت صبّ عليها جام غضبه وأذاقها العذاب ألواناً حين ينتهي أربه منها ! أسمعت أيها الانسان المتمدين بمثل هذا في خطوب الأولين ؟

فروض لا أساس لها من العقل ولا من الواقع ، وترهات لا يؤيدها برهان ولا يقوم عليها دليل ، تتخذ أساساً لبحث في المرأة ومنزلتها من المجتمع وأثرها في اقامة دعائم التمدين ، وتكييف حالات المستقبل . وهي فوق ذلك فروض ليس لها سند في الطبيعة ، ولا موئل في الطبع ، ولا صلة ما إلى مجتمع بذاته من المجتمعات الانسانية . فأين الرجل الذي يحارب متودّداً للمرأة ، وأين الانسان الذي يركب البحار ويخوض الغمار لتزدلف اليه المرأة . وأين الجماعة الانسانية التي عاشت وهذا طابعها في الحياة ؟ لا شك في أن ذلك كله قد قام في وهم ذلك الكاتب لا أكثر ولا أقل وغاية همه من ذلك العبث ، بل من ذلك العبث ، أن يقول « السعي خارج المنزل وقد خصّ به الرجل ، والعمل داخل المنزل وقد خصت به المرأة » هو جماع ما في الجمعية البشرية من حكمة الحياة .

***

أما اذا أردنا أن نتكلم في هذا الموضوع كلاماً تفهمه الطبيعة فيقضي علينا أن نعتقد أن المرأة لها من الحقوق وعليها من الواجبات مثل ما للرجل تماماً ، وان النظامات العتيقة وحدها هي التي جعلت من المرأة ذلك المخلوق المهان المستضعف ، وأن الطبيعة أعدت المرأة أول ما أعدتها لتكون شريكة الرجل في الحياة بأوسع معانيها وبكل احتمالاتها ومطلوباتها . شريكة لها حق الحياة والعمل والكسب والسعي ، ولها فوق ذلك حق طبيعي لا يسلب ولا يُستلب ، هو حق الحرية ، التي هي الحياة .

اسماعيل مظهر

الجاهل لا يؤمنك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف ، فان أخوف ما يكون الانسان لحريق النار أقرب ما يكون منها . وكذلك الجاهل ان جاورك أصابك ، وان ماسك جنى عليك ، وان ألفك حمل عليك ما لا تطيق ، وان عاشرك آذاك وأضناك . مع انه بعد الجميع سيء مثار ، وعند التبعة هلك فقط ، وعند الطوائف في الدين قائد الى جهنم . فأنت بالهرب منه ، أحق منك بالهرب من سم الاساود ، والحريق المخوف ، والدين الفادح ، والداء العياء .

« ابن القيم »

مبدأ سيادة الدولة

وقضية السلم العالمي

بقلم

صلاح الزبير الشريف

ظلّ مبدأ السيادة قاعدة العلاقات الدولية ، ومظهر السلطان السياسي الذي تحرص أمم هذا العالم على التمسك به، في كافة ما يشغل أفق حياتها القومية والعالمية . وحق سيادة الدول في العالم المتمدين ، قرين حق الحرية عند الأفراد ، فهو قاعدة النظم السياسية والتشريعية والاقتصادية ، وشتى نواحي النشاط الداخلي والخارجي للدولة .

وبديهيٌّ أن لكل أمة نظمها الخاصة بها ، وظروفها المقصورة عليها ، وإن كان إلطباع كل الأمم بروح الحضارة السائدة كفيل بأن يقرّب بينها جميعاً، ويفتح أعينها على مشاكل الحضارة التي تأخذ بنصيبها منها ، فتشارك في علاجها بأساليب تكاد تتقارب في البواعث والغايات ، وبذلك تتبادل الحلول والمناهج ، وتتقارب ما استطاعت بين صور التفاوت في وجهات النظر .

غير أن اختيار كل دولة مستقلة نظمها ، وانتخابها لأساليب خاصة تواجه بها مشاكل العيش في ظل الحضارة ، لا يتحقق لها بغير سلطان السيادة .

فالسيادة هي عونها في سلطتها التشريعية فتهيء لها أن تصوغ قوانينها وفقاً لتطوراتها الاجتماعية المقصورة عليها . وهي كذلك عونها في سياستها العسكرية ، فتدفع عن أرضها غوائل الاعتداء . كما أنها قاعدة السياسة الخارجية التي تقيمها ومناط تفاعلها الخارجي كله . فبها تشهر الحرب ، وتعقد الصلح ، وتعاهد وتحالف ، وتبادل التمثيل السياسي ، وتعتمد رجاله ومبعوثيه من أبناء الدول المرتبطة معها بعلاقات سياسية .

وبهذا المعنى على إطلاقه نفهم ضرورة السيادة كحق ضروري لكل دولة تريد أن تتمتع بنصيبها من الوجود السياسي ، وتسهم في إعلاء مقاييس الحضارة التي تسود هذا العالم .

ولكن الدول اليوم لا تعيش في عزلة وراء تخومها السياسية والجغرافية ، بل تتشابك علاقاتها وتتقابل وجهاتها أو تتعارض ، حتى لينشأ من هذا التشابك والتعارض احتكاك بين

السيادات ، إذا لم يعالج دائماً بما يحقق التوازن والاستقرار ، هدّد المجتمع الدولي بشرور الحرب ، وسيادة شريعة القوة ، تحقيقاً لمبدأ التنازع الأبدي في سبيل البقاء .

ولما كانت كل دولة ترغب في أن تحيا مطمئنة على حقوقها ومطامحها ، وأن تكون على أتم أهبة لملاقاة مخاطر النضال ومواجهة أهواله ، فهي لن تجد مفرّاً من الحرب ، تدفع بها العدوان وتحل بها ما يرهقها من عوادي الغير وغوائله .

غير أن من الدول من يتسع أفق نظرتها إلى مشاكل العالم التي تحوض محيطها ، فتنكر جدوى الحرب في حسم النزاع وفض الخلاف ، وتنظر إلى الأمر نظرة عكسية ، وتأخذ في علاجه من طرف آخر ، قد يريحها من الحرب ، ويجنّبها ما تتمخض عنه من كوارث ونكبات .

وسبيلها إلى هذا ، تقوية ضمانات السيادة ، وتعزيز مقدرة الدفاع الوطني من ناحية ، والتوسل بدبلوماسية المفاوضة والمصالحة ، واقتراح شتى الحلول السلمية ، من ناحية أخرى .

وقد كان لسيادة هذه النظرية التقليدية أثر نفسي (سيكولوجي) بعيد في تشجيع بعض أمم المجتمع الدولي على التسابق إلى تقوية سيادتها ، حتى لقد انتوى بها القصد ، وانكفأت أمامها الغاية ، فأهملت جانب المسالمة والمفاوضة ، وأضحى أمر العلاقات السياسية بينها مقصوراً على التطاحن بين السيادات ، يقوّيه العامل الاقتصادي ، وحافز المصلحة القومية ، دون غيرهما من عوامل الاجتماع الداعية إلى التضامن الدولي ، أو التآلف في ظل الدولية العالمية .

وكلة « السيادة » بمعناها الاصطلاحي المعروف اليوم ، لم يعم استعمالها إلاّ في اواخر القرن السادس عشر ، وكان الفقيه « بودان » أول من استعمل هذا الاصطلاح في كتاباته الفقهية ، بعد أن أفسح نطاق مدلوله الفقهي الذي كان يحمله طيلة العصور الوسطى ، إذ كان مقصوراً على سلطات معينة يتمتع بها الملوك والعواهل ، بحكم مركزهم السياسي والاجتماعي ، وما خوّله لهم من المزايا والحقوق .

ولما كانت المبادىء والنظريات عرضة للتطور ، فقد كان حتماً أن تتصاع لحكم الضرورات المختلفة ، فتماشي التطورات الاجتماعية التي تكيف البيئة ، وتوجه مصاير أفرادها ، وتأمن بذلك شر الجمود والانحصار في حدود ضيقة ، وهي كثيراً ما تسوق إلى ضرب من الشلل الاجتماعي ، له آثاره السالبة ، فيتخلف المجتمع ، من ناحيته المادية والروحية ، عن مسايرة ركب الحضارة إلى غاياته المثلى .

ولعلّ عملية التطور هذه ، وهي الناموس الطبيعي الذي يحكم المجتمع الإنساني ، هي خير

ما تختبر به السيادة الجوهرية التي يستوعبها ضمير الجماعة ، إذ أن هذه المبادىء تجوز بدورها سلسلة من التطورات تناولها بالتعديل والتكميل ، حتى تسامت أهداف الجماعة ، وتماشي عوامل الاستقرار أو عوامل الانقلاب التي تتناوب على البيئة .

ولما تشابكت العلاقات الدولية ، واستفحل أمر السيادات في مطلع العصور الحديثة ، ابتدأت عوامل النضال الخفي بين الدول العظمى في سبيل الهيمنة على مصاير التوازن الدولي في القارة الأوربية ، فضلاً عن خوض غمار المعارك الاستعمارية الكبرى التي اجتذبت الدول إلى مغانمها ، للحصول على موارد الحرب وخامات الصناعة .

ولما بدأ المجتمع الدولي يُسعاني مغبة الأخذ بمبدأ السيادة المطلقة ، وتقديس حق الدولة في تبرير أية خطة تنتهجها في تنفيذ سياستها الخارجية ، مادامت مستندة إلى سلطان السيادة ، ظهرت بوادر حركة رجعية ، ضعيفة تُعد بمثابة ارتكاس لنظرية السيادة المطلقة المطبوعة بالروح المكيافيلي . ذلك الروح الذي ظل مهيمناً على علاقات الشعوب المتمدينة ، يدفعها إلى غمار المطامع ، ويجتذبها إلى معارك الحياة والموت .

ولم يكن بد من أن يظهر أثر هذا الانقلاب الفكري في كتابات بعض الفقهاء الدوليين ممن حبذوا فكرة « السيادة المقيدة » فكتب العلامة « بافندورف » في مؤلفه العظيم De Jure Naturne et Gentium منبئاً أن سلطان السيادة يقبل القيود ، وأن هذه القيود تحدّ من السلطة الحاكمة في الداخل حرصاً على حريات المحكومين وخيرهم ، كما أنها تحدّ من حرية الدولة في انتهاك علاقات المودة وحسن الجوار وروح التفاهم ، التي يجب أن تربطها بالدول الأخرى ، حتى لا تستغل مبدأ السيادة ، مدفوعة بنية ظالمة ، في انتهاج سياسة خارجية معادية أو خادعة .

***

وفي القرن الثامن عشر أخذ مبدأ السيادة ، بتأثير النظريات الفقهية الجديدة يتكيّف في صور جديدة تحت ظل التحالفات والمعاهدات التي كانت تعقدها شعوب القارة الأوروبية ، مدفوعة إلى ذلك بعوامل سياسية مختلفة . ومن ثمّ بدأ يسود الأفق الدولي روح جديدة من التفاهم على وجوب تقييد حق السيادة للصالح الدولي المشترك . وجرى العرف الجديد بأن قبلت كل دولة ، تتحالف مع دولة أو مجموعة دول أخرى ، أن تتقيد مختارة ، بقيود سياسية ودبلوماسية ، طامحة إلى جنّ كثير من غلواء المبدأ الذي كانت تعتنقه الدول من قبل ، ونعني به مبدأ التمييز بين السيادات ، ومحاولة كل دولة التوسع في سيادتها على حساب الدول

الأخرى ، غير حافلة بما يترتب على ذلك من إخلال بمبدأ التوازن الدولي ، ومن قضاء على روح المسالمة ، الواجب أن ترعاها إزاء أمم المجتمع الدولي .

على أن مبدأ تقييد السيادات قد تجلى في أبرز صورة في أعقاب الحرب العظمى الأولى ، عند ما قضت الالتزامات التي أوجبتها معاهدات الصلح إبتغاء تسوية عالمية مشتركة ، تحقق في نظر أعلام السياسة أيامئذٍ ، ضرباً من الاستقرار والتوازن ، فقبلت بعض الدول الأوروبية قيوداً سياسية وعسكرية معينة ، اعترف واضعوها بأنها لا تمس سيادة الدول الموكولة بتنفيذها أو استغلالها . وسرعان ما تقبل فقهاء القانون الدولي وأعلام السياسة الأوروبية ، الذين كانوا يسعون إلى تحقيق حلم السلام الدائم ، هذه النظرة الجديدة في فقه السياسة ، وأخذوا من ثمَّ يحشدون آراءهم في مؤلفات تناولوا فيها مبدأ السيادة بألوان من الشروح السمحة التي تحكم المصالح العالمي المشترك ، قبل أن تستهدي بمصالح القومي الضيق الآفق ، مؤكدين أن سلك أمم العالم المتمدين في شبه وحدة سياسية واقتصادية متآخية متضامنة ، لن يتحقق إلاّ إذا قنعت كل دولة بحدود جديدة لمبدإ السيادة ، يتفق والالتزامات التي يفرضها روح عصر ينشد فيه العالم سلاماً طويل الأمد .

غير أن هذا الاتجاه الانساني الجديد في تقاليد المجتمع الدولي ، لم يُرضِ جماعة من الفقهاء المحفوزين بمُرام الرغبات الملتوية ، إلى فرض سيطرة دولهم ، فاندفعوا نحو تأليه حقوق السيادة ، بطريق تأليه مقام الدولة وتقديس حقوقها حتى لتصنوعب حقوق الأفراد وارادتهم ، بله حقوق الأمم الأخرى التي لا تبدو للدول الطامعة إلاّ في صورة المزاحم لها على منادح العيش ومجالات الحياة .

وهم في ذلك يسوقون ضرباً من المناقضة يبدو خطله لأول وهلة ، فيقولون بل يؤكدون أنه بغير اقرار مبدأ السيادة على وجه واسع ، لا يكون ثمت قانون دولي ينظم تشابك السيادات بين الدول . فتقييد السيادة إلغاء صريح للمقوّمات السياسية للدولة ، وإذا سلمنا بهذا الالغاء تدريجاً أو طفرة ، لم يعد للمجتمع الدولي وجود ظاهر . وواضح أن هذا الرأي افتراض نظري محض تلعب السفسطة فيه دوراً يذكر ، وقد تكفل الفقيه الفرنسي الكبير « Le Fur » بدحضه فقال : « إن التوفيق بين سيادات الدول وبين حقوق المجتمع الدولي هو حقاً مشكلة المشاكل في فقه القانون الدولي . بيد أن النظر السليم المبني على قواعد الاستقراء التاريخي والمقارنة المواتية لأسس الاجتماع الانساني ونظمه الحاضرة ، كفيل بأن يهدينا إلى القول الفصل في هذا الاشكال . وإذا أردنا عرض الأمر في أبسط صوره

دون الاصطدام بالتفاصيل الفقهية الرهيقة، ظهر لنا أن المقابلة الاجتماعية بين حق الفرد في الدولة وحق الدولة في محيط المجتمع العالمي، يضع أيدينا على مفتاح الحل المنشود».

«فالفرد في المجتمع، لابدَّ له من حرية تكفل له مجالاً لملكاته ومواهبه، ومن حقوق تهيئ له أن ينمي شخصيته ويقوّي كيان أسرته التي يعمل من أجلها ويكدح، ومن ثمت كان طغيان سلطان المجتمع على حريات الأفراد وحقوقهم، عن طريق الجبر الاجتماعي، بمثابة سلب المجتمع بواعث نشاطه وحيويته. كما أن في إغلاق المجال لحريات الأفراد وتعزيز استقلالهم إذاء حقوق السلطات العامة، محطم لنظام الجماعة معطل لاستقرارها ورخائها على غرار ما تكفلت بشرحه بعض نظريات العقد الاجتماعي، بل حقائق الواقع الاجتماعي ذاته. ثم يأتي الطرف الآخر من المقابلة في صورة مجتمع عالمي أفراده الدول. فهذه الدول الأعضاء فيه، لابدَّ من احترام استقلالها وسيادتها حتى تكون عوامل منتجة في تعزيز الرخاء العالمي. بيد أن هذه السيادة التي تظاهر حقوق الاستقلال، ليس من الصالح العالمي أن يرخى الحبل لانساعها وتضخمها، والاَّ كان من وراء ذلك امتداد لمعارك السلطان بين السيادات، واعزاز لشأن الجامعات العنصرية الكبرى على حساب القوميات الصغيرة، وكلا الأمرين منافٍ لوجود مجتمع عالمي يقوم على تحديد السيادات في سبيل تضامنها وتوجيه حقوق الاستقلال لخدمة قضية السلم. وقوام هذا التحديد مرافق عالمية مشتركة في ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة، تنمو وتتسع بتقدم العالم وازدياد الصلات والروابط بين أجزائه».

والواقع أن العالم في صراعه الحاضر يدلل على أن روحه ترفض مبادىء الطغيان والتحكم وشهر السلاح في وجه الضعيف الأعزل صاحب الحق، وهو اليوم يعير مبادىء الاخاء والتضامن العالمي عناية أكبر ويستوعبها بفهم أنضج من فهم الأمس الدابر. وإذا كان قد تعرَّف على أخطاء الأمس التي حالت بينه وبين هذا التعاون الذي كان ينبغي أن يحكمه في تقرير الصالح المشترك بين الأمم، فان حاضره ومستقبله حقيقان بأن يكفلا له تأليف هيئة عالمية كبرى تكون محكمته وبوليسه وبرلمانه، فتحكم بين الأمم وتعمل لخير العالم غربه وشرقه، وهذا ما تعقد الانسانية اليوم رجاءها عليه.

مصادر المقال.

1 — Foreign Affairs: An American Quarterly Review (April 1942)

2 — E. H. Carr: The Twenty Years Crisis (1919–1939)

الفيل

ذلك المجهول

من الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ؛ لأن بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على أنه يراها. ذلك بأن خرطوم الفيل هو في تكوينه الحيوي ، بمثابة جهاز « رادار » الحديث ، فبتقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الاذنان .

لاشك في أن الطبيعة ، أمنا العظمى ، عندما أرادت تصوير الفيل ، قد افتتنت وتريثت طويلاً ، لتبرز في عالم الحياة حيواناً لا نظير له في الخليقة . وإلاّ فأين نظيره ؟ أين الحيوان الذي تنمو ثنایاه حتى تصير من الثقل بحيث ترهقه بحملها إذا مشى ؟ أين الحيوان الذي زوّدته الطبيعة بجلد سمكه بوصة ، وجهاز لتوزيع الحرارة ضعيف الأثر ، فلا يحتمل الجليد إلاّ بقدر ما تحتمله نبتة ضعيفة من نبات الفول الغض ؟ أين الحيوان الذي اندمجت أنفه في شفته العليا ثم امتدتا إلى الامام فأصبحتا ذلك العضو الغريب الذي ندعوه الخرطوم، فيقوم مقام الاصبع واليد والأنف والنافورة والهراوة .

ان أقدم أسلاف الفيلة قد انقرضوا من الأرض منذ ٢٠٫٠٠٠ سنة على الأقل ، في حين أن الفيل ، وهو البقية الباقية من عالم بائد ، قد عاش إلى الآن ، لتضفي به الطبيعة علينا آية من حيوان هو أبعد ضروب الحيوان عن أفهامنا . حيوان ورثنا بوجوده عن آبائنا قصصاً وخرافات ، وعن علمائنا أقوالاً متناقضة متضاربة .

ولعلك قد سمعت بعض ما يروى عن الفيل . ألم تسمع أن الفيل يبدأ في التوالد إذا بلغ المائة أو يزيد ، وانه لا ينسى إساءة ، وانه لا بدّ من أن يردها انتقاماً ؟ وان الفيلة الافريقية غير قابلة للاستئناف ، فلا يستطيع الانسان أن يعالجها ، وان الطوّال منهم تزعجهم الفئران ؟ وأنّ قائد القطيع لا بدّ من أن يكون خلاً هائل الحجم ضخم الجثة ، له ماض في المعارك تركت أثرها في إهابه ، فتظل له السيادة حتى يتغلب عليه « جالوت » صغير يتربع على عرش القطيع ، وأن الفيل إذا توقع الموت تسلّل لحيوت خفية وفي سلام ، ولكن في مقبرة لا يعرفها إلاّ الفيلة ؟ .

ليس من هذا كله شيء حقيقي ، ولو أنك وقفت تنظر إلى فيل من غير أن تعرف أي شيء عنه ، لاستعصى عليك أن تعتقد شيئاً من صحة ذلك . ولننظر الآن فيما يقال عن عمره . ولنقف عند هذا برهة قصيرة .

***

إن لأهل « بورما » قولة في الفيل وانه يولد عجوزاً طاعناً في السن . ولهم في ذلك حق . فان ولو الفيل يلوح كأنه عجوز فان ، يجلده المجعّد وحركاته الثقيلة وترنحه رنح المعجّزين ، وفيل في الاربعين يلوح لك كأنه في عمر نوح . فاهيك بإهابه المتنفخ الأغبر الأملط المشرّه بآلاف التجاعيد ، وجبهته العريضة البارزة التي تعبر لك عن أنها خزانة حكمة وتجربة ، وعينيه الصغيرتين الغائرتين ، جماع ذلك يكمل ، عند أول نظرة اليه ، صورة حيوان عاش من القدم المديد إلى عمرك الحاضر . هذه الأشياء إيحاء لا غير ، تبعثه فيك صورته الظاهرة .

ويبلغ الفيل تمام نموّه في العشرين من عمره ، وأقل من ذلك شيئاً مّا . وتلد أنثى الفيل وهي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من سنيها ، وتظهر على الفيلة سمات الكبر وهي في الاربعين . وأقصى عمر تبلغه الخامسة بعد السبعين غالباً .

ثم ماذا عن حقد الفيل وانه لا ينسى الاساءة ! قد يكون لذلك الجلس ذاكرة غاية في القوة . ولكن إذا صحّ أن الفيل لا يصفح عن أذية ، إذن لتعذر أن يوجد فيل واحد في ملعب من الملاعب ، أو حظيرة من حظائر حدائق الحيوان . وكل الحقائق المعروفة تدل على أن الفيل يحترم السلطة ويخضع لها . وقد يصرع حارسه إذا شاء ، ولكنه يحني له الرأس احتراماً إذا اضطرّ .

والذكور أخلاق تند عن أخلاق الاناث من حيث الالفة والخضوع ، ومزاجها أخف وأضمن . وهذا هو السبب في أن العادة اتبعت في ملاعب الحيوان أن يكون قطيع الفيلة فيها من الاناث ، ولو انهُ يجري على ألسنة أصحابها كلة « الفحول » إشارة الى الفيلة من غير اعتبار لجنسها . والواقع أن ذكور الفيلة إذا طال بها الأمر ساءت أخلاقها واستعصت ، فتعييها القتل بالرصاص ، طال بها العهد أم قصر .

ان « ضمبو » ، وهو فيل ذكر عظيم دوّخه « بارنوم » ، معروف لكل أمريكي ولد قبل سنة ١٨٩٠ . وهو ولاشك أعظم فيل عاش في أسر الانسان . وكان « ضمبو » افريقيًّا ،

وهو نوع عرف عنهُ أنهُ من أبعد الحيوان عن قبول الإيلاف . ولكن آلافاً من الأطفال وكبروا ظهره ، فناقض بذلك خرافة شاعت عن الفيلة الافريقية .

ثم كيف القول في أن الفيل يرهب الفأر ، وان له مقابر يلجأ اليها ليموت إذا حان حينه وان أكبر الفحول يقود القطيع ؟

***

يقول حرّاس حديقة الحيوان في فلادلفيا ، أن فيلة الحديقة لا تأبه بالفئران ولا تميزها أي النفات . ولا شك في أن ذلك الخلق هو خلقها في الغابة . ومن الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ، لأن بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على أنه يراها . ذلك بأن خرطوم الفيل ، هو في تكوينه الحيوي بمثابة جهاز « رادار » الحديث فينقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الأذنان .

كذلك لا يقود الفحل الأكبر القطيع كما يقال . ولكن الرأي في ذلك غير متفق . بيد أن الشائع أن إحدى الاناث تكون غالباً على رأس القطيع . ويقول أحد صيادي الفيلة أن جماعتها تخضع لنظام الأمومة ، وهو نظام يكون السلطان والرياسة فيه للام ، وأنه إذا حدث ووجد فيل عظيم الناب في جماعة من الاناث ، فيغلب أن يتعذر عليك قتله ، لا لسبب إلا لحصانة الوحشية التي يوجهها اليك الاناث دفاعاً عنه .

***

وقطعان الفيلة مسالمة فيما بينها وديعة في تصرفها . والظاهر أن ما يحدث بينها من التخاصم قليل ، ولا يند عن هذه القاعدة غير فئة قليلة من الذكور يبدو القطيع لسوء أخلاقها ، فتهيم على وجهها زماناً ، تعرض فيما خلاله ، ميول غير مرغوب فيها ، فتظل طريدة .

أما مدافن الفيلة ، فالظاهر أن لا وجود لها . وبالرغم من أن الكثيرين بحثوا وراءها وفتشوا عنها ، وغية في الحصول على عاجها ، فانه لم يعثر على أثر لها . وبالرغم من أن أكثر ما ينقل عن طبائع الفيلة غير صحيح ، فهنالك من حقائق حياتها العجيبة الشاذة ، ما يظهر ان هذا الحيوان من أغرب الكائنات في دنيا الحياة . فالفيل ولو أنه ذائع في بقاع فسيحة شاسعة من رقاع إفريقية وآسيا ، ولا يتنوع عن المشي خمسين ميلاً ليسعد بشربة ماء ، فانه عاجز عن الجري والركض والتقريب ، ولا يستطيع الوثب ، ومشيه عبارة عن سير سريع

لا يزيد معدله عن عشرين ميلاً في الساعة ؛ ولكنه لا يقدر على ذلك غير قليل من الزمن . فاذا هاجم ، فان انصياد قلما يسبقه عدواً

***

والفيل سباح ماهر ، ويحب الغوص تحت الماء بكل جسمه ما عدا طرف خرطومه الذي يظل ظاهراً فوق السطح ، كأنه مثناق[1] غواصة . ولا يضارعه شيء من الحيوان في القدرة على الثقافة ، والتعلم في أخريات عمره . وقد يزن الباه مائتي أو ثلاثمائة رطل . وهما ثقيلان بتعبانه وبضنيانه . وللفحل الكبير من الفيلة نابان من هذا الوزن الثقيل . وكثيراً ما يعمد الفحول الكبيرة إلى شجرة يسندون اليها أنيابهم ليريحوا عضلات رقابهم من حملها بعض الوقت .

ولا يعضد مثل هذه الأنياب غير جمجمة عظيمة الحجم . وجمجمة الفيل شيء يدعو إلى العجب . ففي مؤخر الطبقة العظمية الأمامية التي تؤلف الجبهة ، مساحات منفرجة قليلاً أو كثيراً ، مملوءة بعظام أشبه بأقراص خلية النحل . ومن المتعذر أن تقتل فيلاً باصابة دماغه (مخه) . فان الاهتداء اليه عسير ، ذلك بأنه مندفن في داخل الجمجمة على بعد اثنتي عشرة بوصة أو يزيد .

وأسنان الفيل الفكية شيء غير عادي في دنيا الحيوان . فهي على كبرها لا تستقر في وقوب شأن بقية الحيوان ، وإنما تنتظم في خندق غائر في عظم الفك ، تتزلق فيه حسب الحاجة . ولا يظهر من أسنانه غير سن واحدة أو سن ونصف في كل من فكيه ، فاذا تحاتت سن منها ، سقطت وحلت محلها السن التي تليها . ولكن أغرب ما في الفيل خرطومه ، وهو عبارة عن أنبوبة من العضلات ، أو قل مئات من العضلات ، وينقسم عند منتصفه بفاصل ، وفي طرفه الأمامي بروزان يستعملها الفيل كما نستعمل أصابعنا .

والفيلة تعبر عن الصداقة بتشابك الأنياب كما نعبر نحن عن ذلك بمز اليد . وتربت الأنثى صغيرها بنابها ، فاذا مشى وضعته فوق ظهره لتدله به على الطريق . ورغما كان أعظم فائدة لخرطوم الفيل أنه عضو حس . فاذا نامت الفيلة مدّت خراطيمها لتشم الهواء ، عساها تقع بالشم على عدو قريب منها .

---

(1) Periscope

في الكوخ

قصة عن فاندا فاسيلفسكا

« وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهزولتين ، ولكن لتلتف الى النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ ، أهي محكمة القفل ؟ موصدة لا تثير ؟ »

« جدتي ! اصغي ! جدتي » .

فنظرت « أنيسيا » إلى أعلى . كانت « نتالكا » تناديها من الناحية الأخرى من السور .

« ماذا » ؟

« أتسمحين لي بالنزول دقيقة واحدة » ؟

« ليس ما يمنع من ذلك . احضري إذا شئت » . وأخذت « أنيسيا » تغمغم بطريقتها المعهودة .

ما أدفأ أشعة الشمس في ذلك النهار . وأخيراً وجدت عظامها المتصلبة النابضة بالألم بعضاً من الدفء ينطلق فيها . شمس يولية الجميلة الشفيقة . ألا ليت الأمطار تمسك ؟ أمّا ما كانت تتوقع فقد بلبلها وأزعجها قبل أن يقع المطر اكلاً كلاً . فليس من شيء هو ألعن من أن يبطل المطر . فلو أنه هطل ، إذن لتألم كل جزء من عظامها . تألم بنظاعة . ثم تتورّم مفاصلها ، ويستعصي عليها أن تخطو خطوة واحدة . ولكن عند ما تكون الشمس مشرقة ، وبالأخص كما كانت تشرق في ذلك اليوم ، فإن الحالة تختلف . فما أبهج شمس يولية وهي تداعب الأرض بأشعتها الذهبية .

« جدتي » .

« ماذا بعد » ؟

« أتسمعيني » ؟

« لِمَ لا ؟ طبعاً أستطيع أن اسمعك » . قالت أنيسيا ذلك وهي ماضية تتمتم « عجباً . ان هذه الفتاة تطالب شيئاً على الدوام . لماذا لا يتركون عجوزاً مثلي تستريح في سلام ؟ ان مثلي لا يطلب من الحياة مزيداً ؟ قليلاً من سلام النفس يمرّ بي . بضع ساعات فقط قبل أن يحضرني الموت ، الموت الذي هو آخذ طريقه نحوي » . في هذا اتجهت أفكارها .

عادت نتالكا قائلة : « جدتي : انظري إليّ » .

فرفعت العجوز جفنيها المتقلين نحو الفتاة بانتباه ، وثبتت عيناها العاتران وكأنهما

مغشاتين برق خفيف

« جدتي : إن الألمان قادمون » .

هزت أنيسيا كتفيها . لقد سمعت هذه الأخبار منذ أيام مضت . كانوا قادمين ! أقادمون هم ؟ حسناً . وماذا يحدث لو انهم قدموا ؟ فان الألمان ولا شك سيتركون حزمة من العظام مثلها تموت في سلام . إذا كانوا قادمين ، فليكن ذلك ! الألمان — رنت هذه الكلمة في أذنيها وكأنها شيء بعيد عن سمعها . وفي الحقيقة ، لم تنقل إليها هذه الكلمة أي معنى . أهم من ذلك عندها أن تتشمس وتشعر بالحرارة اللذيذة تسري في عظامها الموجعة . الألمان — فليهتم صغار السن بالألمان ..... أمر لا يزعج عجوزاً مثلها حطمها الزمن

« جدتي : اننا سنغادر هذا المكان ونمضي إلى الغابة » .

« حسناً . اذهبوا إذا شئتم . أي شيء يعنيني في ذلك ؟ لست ذاهبة معكم » .

فأمسكت نتالكا بذراعها وقد ذهب صبرها ..

« كلاَّ لا تفعلي ذلك . إنه يؤذيني . والآن ، ماذا تريدين مني ؟ » .

« جدتي . جدتي . تفضلي واصغي إليَّ ، دقيقة واحدة » .

« إني مصغية »

« أتسمعيني »

« نعم . ماذا تريدين » ؟

« جدتي . نحن ذاهبون الى الغابة . والدي ذاهب معنا وأنا أيضاً . وكذلك كل من هنا » .

« حسناً . اذهبوا إذن . ان الألمان قادمون . هل هم قادمون حقيقة ؟ من الطبيعي أن تطيروا إلى الغابات . أما أنا فسوف أظل هنا ... أتشمس »

« جدتي : إن في حديقتنا رجلين من جنود الجيش الأحمر »

« اثنان ... ماذا ؟ »

« اثنان من الجيش الأحمر . أتفهميني »

« نعم . ولكن ماذا يطلب مني إزاء هذا الأمر »

أخذت الفتاة تنهرها بيأس ممسكة بكتفيها .

« جدتي : انك في سنة من النوم مرة ثانية . اجتهدي ألاَّ تنامي »

« اني لا يأخذني النوم . وانما يهرم الناس بجفوني لا أكثر »

« جدتي . أأنت مصغية إليَّ . في حديقتنا رجلان من جنود الجيش الأحمر . تحت ظليلتنا ، بعقربة من شجر البرقوق »

« حسناً وماذا بهم . أفتنت بأحدهما ؟ »

تنفست نتالكا الصعداء يأساً وقنوطاً ، فجلست القرفصاء تلقاءها ونظرت في تينك العينين الغائرتين اللامعتين بغشاوة المرض والزمن ، وأفصحت لها بصوت عالٍ ، مخرجة كل لفظ بعناية تامة ، ضاغطة على الحروف حتى تبين تماماً .

« جدتي . ان في حديقتنا رجلين من

جند الجيش الأحمر . أنهما جريحين ، ولا أستطيع أن أتخلى عنهما . أنهما مريضين حتى لا يستطيعان الحركة . أتفهمين .

« نعم . نعم أفهم . ينبغي أن يخرجا في الشمس »

« ولكنهما يا جدتي جريحين . فيهما جراح بالغة . أتفهمينني ؟ وجيعنا سنجلو إلى الغابة . وقد يقدم الألمان أي وقت الآن . جدتي . هم في حاجة الى من يأتي لهما بشربة ماء . أعطيهما شيئاً من عنايتك . أتفهمين » ؟

« ليس فيما قلت شيئاً يفوت الفهم ! أفيما قلت شيئاً من ذلك ؟

« أفي استطاعتك أن تفعلي بهما ذلك » ؟

« لِمَ لا ؟ ما دامت الشمس مشرقة ، وعظامي لا تدق بالألم ، فسأخدمهما بكل عناية »

« أنك لم تنسي بعدُ أين هي ظليلتنا ؟ »

« كلاَّ . بالطبع لم أنس »

« إذن فستمضي بهما »

« نعم . نعم . سوف أنظر في أمرهما »

« ولكن كوني على حذر . فان الالمان لا ينبغي أن يلحظوا شيئاً ، ! »

« سوف لا يلحظون شيئاً أبداً . ولم يتعبون أنفسهم في متابعة امرأة عجوز ؟ سوف أتظاهر بأني أطوف على غير هدًى هنا وهناك ، حتى أمر بأشجار البرقوق — فأمر بأشجار البرقوق . . . »

« بحقك لا تنسي ياجدتي » .

« وكيف أنسى ؟ اثنان ! أكذا قلت ؟ هما في حاجة إلى الماء . . . وإلى إنسان يوفر مضجعيهما . . . وأشياء أخرى من هذا القبيل . قليل من الطعام ، على ما أتخيل . ذلك ما سوف يطلبان ؟

هنا أخذ الفرح من قلب الفتاة .

« نعم . نعم ياجدتي . غير أنهما لا يستطيعان أن يأكلا الآن . . . الشقيان : ما أتعسهما . ولكن بعد مضي يوم أو يومين . . . ربما . . . عند ما يشعران بأنهما أحسن قليلاً »

« سأفعل ما في وسعي . سأحضر اليهما قليلاً من الخبز وبُلغة من شيء آخر . سأعني بهما » .

« ومتى تذهبين اليهما » ؟

« إني ذاهبة الآن . . . وبعد قليل سأعود اليهما . لا تقلقي . فكل شيء يجري حسب مرامك » .

« لا تنسي » .

عند ذلك أخذ الغضب من العجوز فاحتدَّت قائلة :

« لقد أوسعتني وقاحة . تذكري مرة وإلى الأبد أن جدتك أنيسيا إذا وعدت بشيء فانها تحتفظ بكلمتها . ماذا يقلق بالك ؟ أتظنين أن جدتك أنيسيا حزمة قديمة من العظام لا منفعة فيها ولا قيمة لها ؟ لا شيء من ذلك . . . . ما دام هناك شمس مشرقة فإني أستطيع أن أعمل عملاً » .

وبقيت تتالكا على اليد الرتمشة المعدة بحنوّ

« حسناً . استودعك الله يا جدة . أكاد أكون متأكدة من أننا سوف نعود سريعاً . ولكن في الوقت الحاضر ينبغي أن نختفي ونبتعد ظهورنا . سنظل رقيبهم من الغابات »

وتمتمت العجوز . « هذا حسن .. من الغابات . . لا تقلقي سوف يكونان بخير وعافية عندما تعودوا . . . . سوف لا أنسى تنبيهك . »

وارتفع صوت من الناحية الأخرى من السور !

« تتالكا ! أين أنت ؟ تتالكا ؟ »

« إني قادمة يا أبي ! إني قادمة » .

وأشرقت قدماها البيضاوان في ضوء الشمس . وهزت أنيسيا رأسها .

« كأنها معزاة مرحة صغيرة . حسناً ، أيتها العظام القديمة — لقد حان الوقت الذي تعنين فيه بالتنين ..... »

جهدت حتى انتصبت على قدميها . ولا بدّ من جهد تبذله حتى تقوم . فإذا قوّمت ظهرها حملتها قدماها الوجيفتان إلى حيث تريد واستندت بصلابة على هراوتها ومضت تطوف في الحديقة وتطلعت عيناها النصف مكفوفتين في ممرات الحديقة تحت أشعة الشمس وهي بها خبيرة . تطلعت فإذا بها تتخيل أن جميع الممرات مغلقة غير مسلوكة . لقد عاشت هنا ، في هذه البقعة . كم من السنين ؟ تسعين . واحداً وتسعين . . .

« كلاّ . لقد ضللت . لقد أثقلني السنون الطوال . كم مرّ بي منها » ؟

دارت من حول السور ودخلت حديقة جارها ، والد تتالكا . وكانت أشجار البرقوق في الركن هناك بعد صفرف عباد الشمس والقنب ودغل التوت . الظليلة ... بناء متداع مسقوف بالخطب والهوص ..... مغمور في أغصان ملتفّة وأمالد كثيفة . واستدارت من حوله لتجد المدخل .

يصعب أن تعثر به . لقد أمعنوا في تنكيره حتى ليتعذر أن تجده .

جريحان مستلقيان هنالك على القش . جثت العجوز ونظرت اليهما .

« لم كذا . ارحمنا ! انهما ما يزالان في ميعة الشباب » .

ـ تنبه أحد الجريحين من الغفوة المغمومة التي أخذته ورفع رأسه المعصوبة .

صاح : « من هنا » ؟

« صه . صه . انها الجدّة انيسيا جاءت لتراكما . ارقدا ساكنا وكونا مستريحا »

« ماء » .

« ماء . بالطبع سأحضر لكما بعض الماء يا ولديّ . سأحضر لكما كل ما أنتما في حاجة اليه » .

« لم تعرف تلك العجوز الفانية من أين أتتها العافية . وقف الألم المض الذي كان يعصر قدميها عصراً . لديته ، فأخرجت من البئر قليلاً من الماء وملأت منه صواعاً وعادت إلى الحديقة ، ثم إلى الظليلة بُميّد

أشجار البرقوق .

« هوذا . اشرب ، اشرب يا بنيّ . ماء زلال رائق بارد . جئت به من بئرنا . إنه حقيقة مما يرد الحياة وليس ككل ماء » .

كان الجريح الآخر يتململ في حمى تقرع أوصاله وترض مفاصله . فبلت خرقة ووضعتها من فوق جبينه .

« وهكذا قد يتفق أن يكون جسد منهوك متداعٍ بالقدم وبالزمن ذا منفعة ... وتالكا ... ويح الطريقة التي اتبعتها معي ! ... ويحها من طريقة! من ذا الذي يجهل أن المريض يحتاج إلى شربة ماء ... وأنت يا بني أرقد في سلام وأرح نفسك . احتمل بصبر يوماً أو يومين . سوف تتحسن حالتك بعدها »

وضعت الصواع بجوار الجريحين ودلفت من ثمّ إلى صومعتها فلما بلغتها ، جلست ثانية على درج الباب وأغفت بعد أن أتعبتها واجبات ذلك النهار . لقد ظلت نائمة حيث هي طوال الوقت شاعرة بطنين الذباب المتكاسل من حولها وبحرارة الشمس وبالنعمة التي تغشاها من الدفء الذي بعثته الشمس في جثثها . ولكن برودة المساء أيقظتها . وبجهد جاهد انطلقت نحو الجريحين ، ثم عادت إلى صومعتها

« حسناً . لقد مرّ بي النهار في النهاية ... وفي الغد ! سيكون الغد يوماً مشرقاً صافي الأديم أيضاً .

في صباح اليوم الثاني دخل ثلاثة فناءها . أما الجدة أنيسيا فلم تأبه بهم أي شيء . ماذا يهمها من الألمان ؟ بعد أيام قلائل قد يأتيها الموت . . . ذلك الموت الذي تلكأ طويلاً على الطريق

انتظرت هادئة . وكانت تسمع أصواتاً خشنة تنطلق بلغة غريبة عنها . فلتدعهم يثرثرون . ماذا يهمها ؟ انها لن تفهم شيئاً منهم

نادوها . فابتسمت بطيبة قلب ، واجتهدت في أن تفحص عنهم بنظراتها لعلها تعرف أي أناس هم . نعم . هنالك ثلاثة منهم . ثلاثة رماة ، لا يكبرون الفتيين اللذين يرقدان في الظليلة — هنالك في الركن الأبعد من حديقة جارها . وسرعان ما شغلتها فكرة . أيوجد في الصواع قدر كاف من الماء ؟ أما لو ذهب هؤلاء وتركوها في سلام .

لقد حان الوقت الذي ينبغي أن يعنى فيه بأمر الفتيين . نعم . سنفعل ذلك عما قريب إن شاء الله . باحتيال . وسوف لا يشتبه في أمرها أحد فمن ذا الذي يهتم بعجوز تقعد حتى عن المشي والسعي لحاجتها ؟

نادوها . ثم نادوها صارخين ، ثم ذهبوا . ظنت أنيسيا أن هذا آخر ما تراهم . ولكنها ما كادت تهم عن درج الباب حتى ملأ الألمان الفناء .

« أهذه صومعتك » ؟

رفعت ذراعها لتقي عينيها وهج الشمس . كان أحدهم يكلمها بالأوكرانية — بلغتها الأصيلة ، ولكن الكلمات كانت تخرج من فمه خشنة لا عذوبة فيها . وفهمت بالضرورة كل ما قال

ولكنها لم تجد من نفسها رغبة في الكلام.

ولكن الضابط أخذته الحدة. «تكلمي! أهذه صومعتك»؟

«صومعتي! لماذا»؟

وأخذ الضباط يتناجون. ولكن أنيسيا كانت في ثورة من الغضب الحاد، لأنهم حالوا بينها وبين الشمس، وبدت تخرج أنفاسها بشدة، فكان لها زحير.

«ما هذا»؟.

«لا شيء. انه لا شيء».

«افتحي الباب».

«لماذا. انه مفتوح» قالت ذلك بعجب يمازجه الغضب.

صاح فيها المترجم. «افتحيه إذا أمرت بذلك».

بكل بطء، وبكثير من التأوه والتوجع جاهدت حتى قامت على قدميها، ثم مالت بصلابة على هراوتها ودفعت الباب فانفتح على مصراعيه ودخلت الصومعة. فازدحم الضباط من ورائها.

«انها صومعة صغيرة مكدسة بالأشياء». ذلك ما لاحظ الكولونيل مقطباً وجهه.

«يمكن أن تفتح النافذة». فاندفع أحد صغار الضباط نحو النافذة ودفع مصراعيها، فأحدث دفعهما بتلك الشدة جلبة جلجلت في الحديقة الخضرة المبللة بندى الصباح.

قال اللازم: «سلها أين ذهب الآهلون»؟

وقفت أنيسيا حيث كانت متوكئة على هراوتها تتأمل هؤلاء الغرباء في صمت عميق.

«كيف أعرف أين ذهبوا»؟ وهزت كتفيها للمترجم عند ما وجه لها السؤال. «إني عجوز فانية، وقلما أخرج من الدار».

«هل تبيتين وحدك هنا»؟

«نعم. وحدي. عشر سنوات مضين الآن وأنا وحدي. لا أحد معي».

تركوها في سلام. ولكنهم احتلوا المنزل وتبوءوا كل مكان فيه: الرفوف والمقاعد والفراش وبدءوا يتكلمون في أمر مّا صاخبين. ظلت هي حيث كانت برهة ما ثم اتجهت نحو الباب. ولكن يداً ثقيلة سقطت على كتفها وجذبتها إلى الوراء. فتحققت أنهم لن يسمحوا لها بالخروج من الصومعة. وأخذ اللازم يناقش في شيء ما مع المترجم. واستمر نقاشهما برهة غير وجيزة.

«انتبه إليها ولا تغفل. قد تكون امرأة عجوزاً عمياء. ولكن الشيطان وحده يعلم ما تخفي وراء ذلك. قبل أن تعرف ما هي، قد ترسل نبأ إلى ناحية مّا بأننا هنا. وأوامري تقضي بأن لا نتركوها تخرج من الصومعة. ألقوا عليها نظركم باستمرار ولا تغفلوا عنها برهة واحدة».

فلما أعرب لها المترجم عن انها لا بدّ من أن تظل في داخل الصومعة دائماً، نفضت أنيسيا رأسها علامة الفهم مرات. أي فارق عندها؟ لقد أمرت أن تقاسي في داخل

الصومعة . إذن فلتظل في داخل الصومعة .

تسلقت سطح الموقد حيث فراشها وأغفت. أما الألمان فكانوا يتكلمون صاخبين في داخل الحجرة، وقد بسطوا على المائدة بعض الخرائط ومضوا يتهامسون ويصفرون، وأرض الغرفة تقعقع تحت ثقل أحذيتهم ذوات المسامير الحديدية. لم تأبه بشيء من ذلك . وظلت في غفوتها ، والذباب يطن من حولها ، والأبواب تجلجل ، والجنديخرجون ويدخلون مسرعين. كل هذا كان يصل إلى حسها كما لو كان من وراء ضباب كثيف ، فإن جسمها كان واقعاً تحت سلطان ذلك الخدر الذي يسبق النعاس .

ولكن القلق ساورها عند ما جنّ الليل. فهناك في الظلمة المخيفة وراء أشجار البرقوق قد يحتمل أن لا يكون في الصراع نقطة ماء. والفتيان ! لا شكّ في أنهما ينتظران الجدة « أنيسيا » بفارغ الصبر . ولا ينتظر أن يكونا قد عرفا ما هو واقع في ذلك المكان . وكل ما يبادر لها أن العجوز قد نسيتهما ، وأنها أكسل من أن تأتي بحركة ...

كانت حينذاك في تمام اليقظة والتنبه ، متطلعة إلى كل ما يحدث من حولها في الحجرة. تجمعوا من حول الباب ، ولكنها كانت تراهم يروحون ويغدون في المشي . أيقف حارس إلى جانب الباب يلحظه ؟ كلاّ . ليس من فرصة للخروج متسللة بحيث لا ترى وانزلقت هادرة من فوق الموقد

« إلى أين أنت ذاهبة » ؟

جملة قالها المترجم وقد ظهر جلياً ، كما لو كان قد خرج من الأرض . فردّت عنها يده غاضبة بطرف هراوتها .

« والآن : كفّ عن هذا . . . لي أن أخرج بعض الأحيان . ألا تفهم » ؟

رجع عنها ، ولكنها لاحظت انه يتعقبها. فهزت كتفيها صامتة .

« حسناً . أأقول بأن الالمان يخشون امرأة عجوزاً ؟ وعلى الرغم من هرمي ، فإني أقدر أن آتي عملاً . كذلك هم يظنون . حسناً جداً . راقبني . راقبني »

عادت أدراجها الى الكوخ ، وقبعت في مكانها من فوق الموقد . كانت مشفقة على الفتيين. وكانت الفكرة فيما تجثم على صدرها. همس في وعيها هاتف وكأنها تقول كان من الممكن أن تتمكن « نتاشا » الصغيرة من التسلل إلى الطارج. أما أنا ... جسد مهدم عتيق مثلي .. ماذا أستطيع أن أعمل يا ولديّ وهم لا يسمحون لي بالخروج إذا أردت. هم يدرجون من ورائي كما لو كنت كمنّ . . كمنّ ذا يعلم إلاّ الله ... من أنا . والآن : ماذا أفعل . ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

ومضت تتقلب في فراشها قلقة ، ترسل أنفاسها دفيئة قوية .

فلما هوّم النعاس برأسها وأخذتها غفوة حلت بهما . كانا يطلبان ماء ... يتوسلان. يطلبان الماء . ولكن ليس هناك قطرة واحدة في الظلمة . انهما يناديانها . يناديان الجدّة

انيسيا . والجدة أنيسيا لا تحضر . لقد أحضر الرباط عن رأس أحدهما ، وليس من يسعفه بردّه حيث يجب أن يكون . انهما يشكوان إلى نتالكا من أن الجدة أنيسيا لم تلزم كلّيا ، وان نتالكا تشير اليها مهددة بطرف أصبعها معبرة عما يجول في رأسها . يا لله . انهمرت الدموع من عيني انيسيا لعنف ما صمت . يا لله . انهما يصرخان بحدة ، يطلبان الماء . كانا يصيحان بصوت عال ، حتى فزعت انيسيا من نومها ، وشعرت أن شيئاً غير مرغوب فيه قد حدث . تململت من فوق الموقد ، ولكن خيل اليها انها ما تزال نائمة .

كان الضياط جالسين من حول المائدة ، على المقاعد ومن حول الفراش . وكان في مواجهتهما الفتيان صاحبا الظليلة والقفان ومن حولها نطاق من الجند . خيل إلى الجدة انيسيا أن ذلك الرمد الذي أخذ يفشى على هيلينا منذ سنوات قد انكشف عنها فجأة . رأت كل شيء بدقة لم تتعوّدها منذ أعوام طوال . يا للعجب . هاهي ذي ترى اللفائف على رأسيهما وأرجلهما واذرعتهما . وها هي ترى ما في قسمات وجهيهما من التعبيرات . كانت عيونهما تلمع بأشعة محمومة هاذية . رفعت انيسيا رأسها من فوق الموقد ، وأطافرها الحادة تقطع راحتيها غيظاً . وانما فعلت ذلك لتنصرف بهذه الحركة عن البكاء بصوت مسموع .

جلس الكولونيل في وسط الحلقة ، مستلقياً على مقعده بنظمة ، وخياله يتراءى رواحاً وجيئة على حائط البهو كلما تحرك . وكان مصباح الغاز يلقي ضوءه الى أسفل ، فكانت عينا الكولونيل تتواريان في حدقتيهما الغائرتين . وكان المترجم واقفاً إلى جانب المائدة على مقربة من الجريحين . سأل الكولونيل سؤالاً ، فأعاده المترجم بلغتهما ، ولكن بصوت أجش كريه .

« من أي الوحدات أنتما ؟ »

وكانت الجدة أنيسيا تستطيع أن تسمع بدقة ، كأنما تلك المداة التي سدت أذنيها سنين ، قد زالت في لحظة . وكانت تصل اليها الكلمات واضحة بيّنة ، على صورة لم تعتدها أياماً طوالاً .

حتى أنفاس الجريحين المترددة العميقة ، كانت تصل سمع « أنيسيا » وهي مستجمعة من فوق الموقد . كانا يجاهدان في سبيل التنفس بقوة من فيهما اليائسين . كانا يترنحان ، ولكن أيدي الجنود الألمان كانت تسندهما بقوة وخشونة ، ليثبتا مكانهما .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

لم يجيبا . وقرع الكولونيل بيده على المائدة بشدة عندئذ .

« قل لها اني لا أحتمل شيئاً من هذا الهذر . أهذا واضح ؟ قل لها ان نصيحتي ، ونصيحتي الخالصة ، أن ينكلا . عرّفهما ان لدي طرقي الخاصة لمعاملة أمثالهما . سيلهما من

أي الوحدات هما ، ومتى نزلت الوحدة هناء وإلى أين ذهبت ، ومن أين أنت ، وأين الجيش ، وأين سكان القرية . وفي أي المعارك حاربا ؟ هذا ما أطلب . ابتدىء ! »

أدركت أنيسيا من صوته ما فيه من تهديد ووعيد . شعرت بأن قلبها يدق وكأنه سينفجر . دق قلبها دقات قوية لم تعهدها من قبل ستين طويلة ، وخيل اليها أن أولئك الجالسين من حول المائدة سوف يسمعون هدير تلك الثورة القائمة في صدرها . ولكن لم ينظر نحوها أحد منهم . كانت كل العيون متجهة إلى الفتيين الواقفين أمام المائدة ، تسندهما أيدي الجند الخشنة القاسية .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

تنفس الفتى الشجوج الرأس طويلاً وبعمق . وانتظرت الجدة أنيسيا الجواب ، وهي تنتفض من قدميها تغرق رأسها .

« سوف لا أجيب » !

« انك لا تجيب . حسن . اليك ياهنس ساعده حتى يخرج . إنه لا يستطيع أن يخرج الكلمات من بين أسنانه . اذهب وخذ بيده » فرفع الجندي يده وضرب الجريح الروسي على وجهه بجمع يده . ارتدت تلك الرأس الجريحة إلى الوراء . الرأس التي تغشاها تلك الملفائف القذرة المدماة . ولكن الجريح استجمع إرادته وبذل جهد الصابر فتماسك ولم يتضعضع .

« سوف لا أخبرك » !

« أين الجيش » ؟

« لا أعرف » .

« أنت لا تعرف ، إليك ياهنس . نبه ذاكرته . أيقظها ! أن الفتى المسكين قد نسي ولكنا سنجتهد حتى يتذكر . نعم : سنفعل غاية جهدنا حتى يتذكر » !

تبع ذلك ضربة على الفك ، ثم ثانية وثالثة . وظهرت على الفاقة قطرات من الدم الجديد . وبجهد عظيم كبتت أنيسيا عواطفها فلم تصرخ ، وحبست صوتها المتهدج في حنجرتها الواهية .

« أين القرويون » ؟

« لا أعرف : لم أر منهم أحداً » .

وفي سورة من الغضب لوى الكولونيل حزمة الاوراق التي كانت أمامه على المائدة وأخذ يفركها بأصابعه .

« انه لم ير أحداً منهم ياهنس . تصور . انه لم ير أحداً منهم . تقدم إذاً وأره عينيه . أتفهم . خذ بيده حتى يستطيع أن يرى » .

سقط رجل الجيش الأحمر على الأرض . وانتصبت أنيسيا . كلا . لن يكون ذلك . ان عينيها الغليقتين المغرورقتين بها ! فقد امتطى الجندي منكبيه وجلس آخر على صدر الرجل المنطرح على الأرض ، وبكل تؤدة وثبات أولج الجندي هنس ذلك النصل الحديد في عين الجريح اليسرى . وسرى إذ ذاك عويل وحشي ملأ جو المكان ، ثم سكن فجأة .

« أين الجيش »

« لا أعرف سوف لا أخبرك . انك لن

تفوز بشيء مني » — كان هذا جواب الفتى الجريح ، ولكن بصرت عميق شديد جاف . وانحدر الدم من الحدقة المفجورة إلى فمه وقام الكولونيل من مكانه وانحنى على الرجل المحتضر وارتسمت على وجهه أمارات دلت على الدهشة والعجب ، ثم ركل الجسد الهامد بطرف حذائه

« سله للمرة الأخيرة هل هو عجيب » ؟

وانحنى الترجمان على الفتى الممدود على الأرض . وسمعت الجدة انيسيا صوت الدم يخشرج في صدره . ومن خلال ذلك الصوت الكريه استطاعت أن تسمع بضع كلمات تخرج بتثاقل وجهد ، مختلطة بأنات الألم ، وكأنها تسمع :

« أيها الرفقاء ، هيا ، تقدموا مسرعين الوقعة الأخيرة ، فلنتقدم » .

« ماذا . ماذا . ماذا يقول » . سأل الكولونيل باهتمام .

« لا شيء » .

« ماذا تعني بلا شيء . إنه قال شيئاً ؟

« قال شيئاً غير مفهوم » .

« اقض عليه إذاً » . ذلك أمر الكولونيل .

« فرفع الجندي سكينه » .

« لا ليس هنا . خذه في الخارج » .

فأمسك الجندي بذلك الجسد الهامد من تحت الإبطين وجره نحو الباب . ورأت انيسيا رجليه الواهيتين تسبحان من فوق الأرض فتركان أثراً من الدم في طول الحجرة

جلست حيث هي ، ويدها على قلبها ، كأنما هي تثبته مكانه . وتراءت خيالات سود على الحائط . هنالك كان الفتى الثاني واقفاً أمام المائدة ، كان يتمايل ضعفاً . ولكن أيدي الجند الخشنة كانت تعضده .

« سله »

سترت أنيسيا رأسها تحت الغطاء . وسدت أذنيها حتى لا تسمع ، وضغطت عينيها بيدها حتى لا ترى ، ومع تنهدة خرجت من أعماق نفسها لعنت مصيرها الذي جعلها تعيش الى التسعين أو ما فوقها حتى أوصلها الى هذه الليلة الليلاء . لعنت عينيها لأنهما لم يفقدا ضوءهما ، ولعنت أذنيها . لماذا لم تفقد عيناها البصر ، ولم لم تفقد أذناها السمع ؟

ومن خلال الغطاء استطاعت أن تسمع الرواية الأولى تتكرر ، الصرخة الداوية ، وأنات الألم العميقة .

« لا أعرف ، سوف لا أخبرك » .

ساد السكون . ومضت برهة لا تستطيع فيها أن تمد رأسها من وراء غطائها لتستطلع ، وبعد لأي مدت رأسها بتباث . ان الألمان يتأهبون للنوم على ما يظهر . انهم يخلعون الأحزمة والأحذية . لقد أغلقوا الصارع الخشبية على النوافذ وأقفلوا الباب ، وعسكر الجند في خارج الصومعة ، وظل حارس يذرع الأرض رواحاً وجيئة أمام الباب ولكن الضباط على ما يظهر لم يكن لهم ثقة بأحد . فقد امتحن الكولونيل بنفسه قفل الباب

وجس الباب والنوافذ ، واقترب من الوقد ليرى العجوز . أنائمة هي ؟

أقفلت أنيسيا عينيها ، وتنفست بتخاذل وهدوء ، كأنها في نائمة .

وأطفىء المصباح . وأخذ الزمن يمضي ببطء وهوادة . يالله . كم هو بطيء ذلك الزمن . وفي ظلام الحجرة الخفيف الضئيل ، كانت الثواني كأنها الاحقاب . أحقاب الأزل . لقد وقف الزمن فلا يتحرك . وكانت أذراعا أنيسيا وقدماها كأعمدة من الثلج ، وقد فصح جبينها بعرق بارد مثلوج . وانحدر العرق إلى ظهرها ! لا بد لها من أن تفعل فعلتها . نعم هذا قضاء .

كان بعضهم ينط غطيطاً . وجلست أنيسيا من فوق الوقد ، وخيل اليها أنها قد ترى في ذلك الظلام الدامس ، وأن كل حركة تأتيها قد تسمع ، وقد تم عنها . ولكن الآخرين كانوا في نوم عميق . وكان غطيطهم منبعثاً من انحاء المكان . هنالك هم يرقدون . متقلبين على فراش خشن من القش الجاف . ونام الكولونيل في المهد ومدت أنيسيا إحدى رجليها بحذر من فوق الموقد وانتظرت أما لو سكن قلبها عن ضرباته تلك . عسى هذه الضربات لا توقظهم . ولكن لا . انهم في غمرة من النوم . النوم العميق الهادىء الذي تطلبه أجسام انهكها التعب . وأخذت أنيسيا طريقها نحو الباب . ومن ثقبه أخرجت المفتاح بخفة ومن غير أن تحدث صوتاً . ثم مضت تحكم قفل الزجاج من وراء كل نافذة . أية قوة كانت مختزنة حتى تلك الساعة في اليدين الواهيتين المرعشتين ! والآن وقد أحكم قفل الباب والنوافذ ، وسدت جميعاً بإحكام ، فليس في استطاعة أحد أن يدخل الصومعة ليقلق النائمين أو يوقظ الضباط

انتظرت دقائق ، ثم استدارت بخفة من حول المائدة ، نعم ، كانت الزجاجة ما تزال في مكانها ، إنها مملوءة حتى القمة ، لقد أتت بها نتالكا من المخزن قبل ذهابها وتركتها هنالك ، إنها ملآنة .

وشدت العجوز البداءة ، ومن غير أن تحدث أي صوت انحنت على الفراش ، وصبت قليلاً من الكيروسين على القش عند قدمي الكولونيل ، ثم ارتدت بخفة خطوة واحدة وصبت بحذر وبطء مثلها على الأرض حيث كان يرقد الضباط ، ثم على العتبة ومن حول الحجرة بأجمعها .

كان كل شيء جاف . الجدران والأبواب والمضائد . منذ كم من السنين وقفت تلك الصومعة حيث هي ؟ كان قرميدها الخشبي جافاً كالهشيم ، نعم ، الهشيم . طبعاً كالهشيم .

وبأصابع مرتاعة فتشت عن الثقاب تحت الغطاء ، وخيل إليها أن شعلة الثقاب قد دوت رنين طلقة نارية ، ولكن كل شيء كان هادئاً في الصومعة ، اللهم إلا غطيط الرجال النائمين مطرداً نظيماً ، وحال أحدهم سلطان نوم عميق . وقربت الثقاب المشتعل من أرض

الحجرة ، ثم شعرت بأنها لا تقوى بعد ذلك على الحركة . وامتد اللهب بسرعة في الخشب الجاف ، متلويًا كأنه أفعى هاربة .

لم تستطع أنيسيا أن ترفع بصرها عن ألسنة النار ، ولم تشعر بأن ثوبها الشبع بالكيروسين قد اشتعل .

وبعد قليل نهض أحد النائمين صائحًا ، ولكن الصومعة كانت ملعبة للنار الحامية ، التي اندلعت ألسنتها ، وكان أحدهم يعمل في الباب ليفتحه .

وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتتلف في النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ : أهي محكمة القفل ، موصدة لا تُقهَر ؟

وصايا صحية

الفاكهة في الغذاء اليومي

من الناس من يأكل الفاكهة بعد وجبة كاملة ، إذ تكون الشهية منقلة ، والجسم مرهق بالتعب . وآخرون لا يتناولون الفاكهة حذر الاسهال ، وقليلاً ما تسبب الفاكهة هذا المرض الهم إلا إذا كانت قد تجاوزت حد النضج أو كانت في تخمر . وقد تسبب الفاكهة بعض الأحيان قليلاً من المتاعب إذا أكلت بين الوجبات وفي وقت غير مناسب . وينبغي أن تؤكل الفاكهة كجزء متمم للطعام ، فاذا كانت ناضجة نفعت ولم تضر .

الاحتياط في تناول الطعام

يعيش أكثر الناس على نصف ما يأكلون تقريباً ويرهقون طاقاتهم الحيوية بارغام الجهاز على التخلص من النصف الآخر . في حين كان من الواجب استخدام الطاقة المفقودة في الجهد العقلي أو الجسماني . والسبب المباشر لسوء الهضم هو تلك العادة السيئة . عادة الجلوس إلى الطعام لأن وقته قد حان . ثم نغري بالالوان الفاتنة فنأكل ونحتشي في حين أن إباء الشهية وعدم الشعور بالجوع هو تدبير الطبيعة ، يوحي الينا بأن الأكل غير ضروري .

ان آلافاً من النافرين قد صاروا إلى قبورهم باغراء أصدقاء جهلاء أخطأوا أو أحسن قصد . ذلك بأنهم قد يشجعونهم على تناول الطعام والشراب ، ظانين أنهم بذلك يستردون قواهم ، فيفقدون كل شيء .

التـــراب

يغزو الموت

كيف أدت الباحث في التعدين إلى كشوف علمية
أغلى ثمنا من كل الذهب الذي تخرجه كندا .

إن أحدث انتصار سجله العلم في العصر الحديث ، هو انتصاره على أقدم مرض أصاب الانسان منذ أبعد العصور .

في فجر التاريخ وفي مكان ما ، وقف رجل بدائي يعمل بجهد النسمية ويصبر لاينفذ شهراً بعد شهر لكي ينسج من جوانب كهفه الذي يؤويه قفص مستخدماً عضلاته القوية في نحت صفحة من الجبل ، مستنشقاً التراب من فتات الصخور . وذات يوم تصلبت وصلات أصابعه فلم تستطع حمل أدواته ، وضاق تنفسه فلم يصل إلى رئتيه الهواء حتى كادت تتحطم ، ثم خر صريعاً وأسلم الروح . كان هذا الانسان البدائي أول ضحية من ضحايا التحجر السليكي .

بعد أزمان طويلة لا يحصيها العد — أي في العصر الحديث — مات خمسمائة من العمال كانوا يحفرون نفقاً في خلال بضعة أسابيع — في الدهور التي تخلت الحادثين — وهي دهور تتضمن فيما تتضمن أحقاب التاريخ الانساني برمته — ظلت وظيفة التنفس الطبيعية ، وهي وظيفة تعود على الانسان بالصحة والعافية والحياة ، تقضي على العمال بالمرض والموت ، فراحوا ضحية داء خفي يحول رئاتهم إلى ما يشبه الجلد الجاف .

منذ ١٩٠٠ سنة مضين سماه الكاتب الروماني بلينيوس داء « قاطعي الأحجار » وعرفه آخرون بأنه سل المدّنين أو عفن الشّانين أو رئة الخزافين أو سعال صنّاع الآجر ، إلى غير ذلك وهو يصيب طبقات كثيرة من الناس كالسبّاكين والفلاحين وصنّاع الخزف وغيرهم ؛ فاذا لم يقتل أدّى الى مرض السّلال . أما الوقاية منه فانحصرت في تربية الشوارب والتّحى وكانت هذه نصيحة الأطباء الى شهر ابريل سنة ١٩٤٠ . وقد أدت فعلاً إلى منع شيء قليل من الاصابة بهذا المرض .

وليس معنى القول بأن العلم انتصر على مرض التجلد السليكي، أن حُفّار ذلك النفق الذين قضى عليهم المرض تلقاء عملهم هم آخر من يموتون به، كما ان استكشاف الانسولين ليس معناه ان داء السكر سوف لا يقتل أحداً من الناس. ولكن معناه الصحيح ان في يد الانسان الآن سلاحاً قوياً فعّالاً يستعمله في اتقاء فعل حبيبات السليكا التي لا يزيد حجمها على حجم البكروبات المجهرية. ومن أعجب الأشياء ان هذا السلاح هو بذاته . . « تراب »، مكوّن من حبيبات دقيقة من الالومينوم تُصفّح الرئة وتحفظ رطوبة أنسجتها الاسفنجية من فعل التجلد الذي يحدثه تراب السليكا. ولكل شيء آفة من جنسه.

ويرجع الى كندا الفضل الأكبر في هذا الاستكشاف، وتليها أمريكا وبريطانيا. ففي شمال كندا الأقصى وفي مبنى عظيم تملوك لمناجم « كابوسكاسنج » في اونتاريو، وهي تاني المناجم الكبرى لاستخلاص الذهب، يدخل مئات من العمال في مناوبتين، حجرة جافة، فيرتدون ملابس العمل، وفي أثناء ذلك يستنشقون في جو الحجرة هواء ممزوجاً بتراب الالومينوم، نسبة تركيزه ٣٠ر٠٠٠ جزء من ذلك المعدن المسحوق في كل سنتي متر مكعب من الهواء. ويشبع جو الحجرة بذلك التراب قبيل دخول العمال اليها. ومسحوق هذا المعدن لطيف لا يرى، وهو فوق ذلك بلا رائحة أو طعم.

ولا يُتخذ هؤلاء العمال محل تجربة، فان زمن التجربة قد فات منذ زمان. فليس من اصابات جديدة بالتجلّد السليكي بينهم، والمصابون به من قدامى العمال آخذون في سبيل الصحة والفضل في ذلك كل الفضل « لحجرة مسحوق الالومينوم ».

ولقد كان طريق البحث الذي أدّى الى تأسيس « حجرة مسحوق الالومينوم » طريقاً مملوءاً بالعوائق والشكوك والفشل. كما ينبغي أن يقال ان السبب الذي حمل على هذا البحث لم يكن فيه شيء من انكار الذات أول شيء، فان تقريراً وضعه ثلاثة من الباحثين تضمن انه « بعد شيوع مرض التجلد السليكي ومعرفة أنه مرض لا بدّ من أن يصيب العمال في المناجم حتماً، اتجه فكر الأطباء والراقبين في هذه المناجم إلى أهمية تلك الظاهرة وما نشأ عنها من مشكلات في صناعة التعدين ». وقد كان تفشي هذا المرض سبباً في نفقات باهظة تنفقها ادارة المناجم، بغير نتيجة بينة. لهذا كان للانتصار على مرض التجلد السليكي قصة تضارع قصة استكشاف التطعيم والراديوم والانسولين والسلفا والبنسلين.

ظنّ أول المشتغلين باخضاع ذلك المرض لسلطان العلم أن فتات تراب السليكا الحادة الأطراف إذا دخلت الرئة عملت فيها عمل آلاف من المدى الصغيرة. فتصيب أنسجتها بقروح.

واقترح بعضهم الالتجاء إلى طريقة التهوية الصناعية، وقال غيرهم باستبدال المضخات المائية أو التقنع بالقناعات المرشحة، غير طانين أن تراب السليكا إنما يؤثر أثره بالفعل الكيميائي، وأن التهوية والمضخات المائية والأقنعة المرشحة لا فائدة منها في حجب جزيئاتها الدقيقة عن دخول الرئة.

تطوّع ثلاثة رجال لواجب البحث والتنقيب عن سبب هذا المرض وعلاجه. « ج. دني » مهندس التعدين و « و. ب روبسون » كبير الاطباء و « دلي ا. إرون »: والأولان من موظفي مناجم « ماكستار » والثالث استاذ البحث الطبي في جامعة أونتاريو. واتخذوا سير « فريدريك بانتنج » مستشاراً لبحوثهم.

ولما كان من المستحيل إزالة التراب من الجو الذي يعمل فيه العمال، عمل هؤلاء الباحثون على قاعدة أساسية، هي الكشف عن مادة تقضي على الأثر الذي يخلفه تراب السليكا — يزدردها العمال.

ولقد مات أجيال بعد أجيال من الأرانب وخنازير غينيا في المناجم ومعامل البحث، طوراً بنشر التراب الطبيعي وطوراً آخر بذر السليكا وأتربة أخرى عليها. وجرى البحث على أن ترسل أعضاؤها الرئيسية إلى دكتور « إرون » في تورونتو للفحص عنها وتحليلها في حين ظل « دني » و « روبسون » يعملان بكل جهد مستطاع ويجمعان بين أنواع الاتربة والسليكا ويمزجانها ثم ينفرانها في الجو الذي تعيش فيه خنازير غينيا: لعلهما يقفان على شيء يقضي على أثر السليكا في الجسم البشري

هنا وصل بحث علماء بريطانيا إلى أن السليكا إذا تحاتت حتى تصير ذرات غير مرئية أحيطت بملايين عديدة من جزيئات الاوكسجين العاطفة، فتذوب هذه الجزيئات في رطوبة الرئة وتحدث الحامض السليكي، وهو الذي يسبب « تحلد الرئة » وربما كان هؤلاء العلماء قد أملوا أن تكون هنالك مادة تشبع عطش حبيبات السليكا المشبعة بالاوكسجين فتقضمها قبل أن تحدث أحداثها السيئة.

وذات يوم، وبغير سبب خاص، ذرّوا شيئاً من محوق الالومينيوم في مغسل التراب الذي كانوا ينثرونه دائماً عن مجموعة من حيوانات التجارب وأرسلت رئات هذه الارانب الى دكتور « إرون »، فبحثها ثم أرق: « لا أثر لتحلد السليكي في الرئات بالعينة ٣٤١٧٣» فردّ عليه « دني » و « ربسون »: « وصلت البرقية » — فكأنهما رفضا أن يعللا النفس بأن ذلك الخبر يعني شيئاً جديداً، غير أنهما ظلاّ يضيفان محوق الالومينيوم ذرًّا في جو

المحبس الذي تعيش فيه الأرانب فكانت نتيجة البحث أن التجلد السليكي لا أثر له في رئاتها

كان من الظاهر أن البحث قد أدى إلى نتيجة حاسمة ولكنهما لم يثقا ولم يهدءا في الثقة. فإن ما وصلا اليه قد يكون « شيئاً » وقد يكون « لا شيء » فقبل أن تطبق النتيجة التي وصلا اليها في معملهما الصغير على آلاف العمال في صناعات مختلفة، رأيا أنه لا مناص من الاجابة على سؤالين :

الأول : أي تأثير لتراب الالومينوم على السليكا فيمنعه من التحول إلى محلول يستحدث حامضاً قتالاً ؟

الثاني : ما هو الأثر الذي يخلفه في الرئة إذا تكرر تزويدها بتراب الالومينوم ؟

فاذا اتضح انه ضار، تركا الأمر كله ونسياه، وعمدا إلى تجارب أخرى. أما السؤال الثاني فقد أجاب عنه دكتور « فرانسيس فراري »، مدير البحوث في شركة الالومينوم بأمريكا فقد سئل : « هل لدى الشركة عمال ظلوا يستنشقون ذرور تراب الالومينوم زمناً طويلاً ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما أثر ذلك في صحتهم ؟ » فكان الجواب « ان العمال الذين يصنعون ذرور الالومينوم المستعمل للدهان والخبز يعيشون بصحة جيدة »

وقد أوضحت الأشعة السينية وسجلات العمل الخاصة بما لا يقل عن ١٢٥ عاملاً ظلوا يعملون في هذه الصناعة مدداً تتراوح بين ٦ و ٢٣ سنة، أن الالومينوم قد يحدث فيهم آثاراً غير سوية، ويظهر فضلاً عن ذلك أن صحة هؤلاء العمال هي في المتوسط أقوى من صحة ٣٠٠ عامل آخرين يعملون في أقسام أخرى لهذه الشركة

بل وضح أكثر من ذلك، فان ثلاثة من المستخدمين كان قد ظهر في الألواح التي صورت بها صدورهم بدايات السل، ولكن هذه الآثار قد زالت من الألواح التي صورت بعد تعرضهم مدة لاستنشاق تراب الالومينوم. وهنا عاد الباحثان إلى معملهما في غابات الشمال تملؤهما الثقة ويحدوهما الاطمئنان

ولقد علما أن حبيبات السليكا الدقيقة تنحل بسرعة إذا اتصلت بالماء، وعلما فوق ذلك انه إذا أضيف إلى الماء ٥٪ من تراب الالومينوم يمنع انحلال السليكا، وكيف يحدث ذلك ؟ تذكر صبغة تسمى الأورين — aurine — ترد الالومينوم أحمر زاهياً، فذرّا على قطع من الحجارة كسرت لوقتها مسحوق الالومينوم، وتركا قطعاً أخرى من غير أن تعالج بمثل ذلك، وصبّا عليها صبغة الأورين، فالحجارة المغشاة بمسحوق الالومينوم انقلبت حمراء براقة، وظلت الأخرى بدون تغيير، فتراب السليكا قد أصبح بذلك غير ضار، لأنه ملي بالمعدن

هنا حان الوقت لتطبيق ذلك على الانسان ، وهذا يدل على أن ما يصح في تجربة المعمل قد يتفق أن لا ينجح في التطبيق على حالات الحياة التي من أجلها أفرغ كل الجهد . وفي هذه الرحلة انضم إلى الباحثين ثلاثة من فحول العلماء هم دكتور هـ . و . كرومبي كبير أطباء مصحة الملكة الكسندرا في لندن بمقاطعة أونتاريو ، وهو حجة في أمراض الصدر ، ودكتور ل . بلايسديل من كبار الباثولوجيين (علماء الامراض) والآنسة ج . مكفرسون الكيميائية بنفس المعهد . وبدأوا بحوثهم في مستشفى القديسة مارية ببلدة « تيمنس » ، وانتقوا ٣٥ عاملاً وضعوا تحت العلاج بشم تراب الالوميتوم ، وعدد آخر لم يعالج به ، وكلا المجموعتين من المصابين بالتجلد السليكي ، وظل الجميع يعملون في محيط تراب المناجم في أثناء التجربة

بدأت تجربة انشاق تراب الالومينوم بخمس دقائق كل يوم ثم أطيلت المدة حتى صارت ثلاثين دقيقة ، وبعد مدة كررت فيها العملية ٢٠٠ أو ٣٠٠ مرة ، فكانت النتيجة ان سبعة منهم ظهر فيهم تحسن جلي ، واثني عشر ظهر فيهم تحسن نسبي ، ولم يتحسن الباقون . ومن الذين لم يعالجوا ٦٥ ساءت حالهم الصحية .

وقد قرر الذين عولجوا انهم أصبحوا أطول نفساً أو انهم لا يشعرون بضيق النفس ، كما زالت آلام الصدر والشعور بالتعب ، بل زاد وزنهم ، وأصبحوا أقل تعرضاً لاصابات البرد : على ان شيئاً من وجوه هذا التحسن لم يظهر في المصابين الذين لم يعالجوا . هـذا كله وقد اعتقد الأطباء أن تراب الالومينوم انما هو مانع للتجلد السليكي ، وليس بشافٍ منه . ومن ثم أقيمت حجرة الاستنشاق التي ألمعنا اليها قبل

أقوال

- الحرية شيء لا تملكه حتى تعطيه
- يعيش أكثر الناس عيش من ينتظر ان يحكم عليه بما يكتب على لوحة قبره ، لا مما يعرف من خلقه
- إن أفضل الازواج لا يفتحون ، وانما يصنعون .
- الرجل العادي ، هو الذي يظن انه غير ذلك .

***

لقد سبقتك اليوم عيناك مدمعه وأبكاك من عهد الشباب ملاعبه
فوالله ما أدري أيطلع الهوى اذا حد جد البين أم انا غالبه
فان استطع اغلب وان يتغلب الهوى فمثل الذي لاقيت يتغلب صاحبه

الرماح ابن مرادة

تأثير الآلات الحديثة

في حياة الفلاح المصري

من حيث القوة والعمل

همسة في أذن وزارة الشئون الاجتماعية

تخيل دائني انساناً وأمعى . وقف الانسان على قدميه ، وانبطح الامعي على بطنها . ولكن انتلابا خلقياً خطيراً أصابهما . التعم ساقا الانسان وانتطالا ، وانتفخ ذراعاه في جنبيه وانبطح على بطنه، وانخلق ذنب الأمعي فصار ساقين، وبرز من جنبيها ذراعان فانتصبت واقفة ، فصار الانسان امعي ، وصارت الامعي انساناً .

كان لبضعة اختراعات قليلة اهتدى اليها في القرن التاسع عشر ، آثار اجتماعية لم يمر بخيال أحد انها سوف تترتب على تلك المخترعات . بل إن هذه الآلات ، كما أحدثت آثاراً اجتماعية ، كذلك أحدثت آثاراً سياسية ، خضعت لها الدول ، ولا تزال خاضعة لها حتى اليوم . فالآلات أحدثت كل الحركات العمالية التي شغلت العالم قرناً ونصف قرن من الزمان ، وقوّت روح المذاهب الاشتراكية والشيوعية وما اليها ، كما كانت السبب في قيام الروح السلطية الاستعمارية في العالم الحديث . لأن العَلَم تبع التجارة في البحار ، كما قال سياسيو القرن التاسع عشر . والآلة زادت الانتاج ، وزيادة الانتاج تطلبت الأسواق ، وفتح الأسواق تطلب الجيوش والأساطيل .

ولكن تأثير الآلة لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى آفاق أخرى وأحدث آثاراً سوف تشكل عالم المستقبل القريب بحسب ما خلقت من ظروف وبيئات . من تلك الآثار أثران كان لهما أعمق الفعل في حياة الجماعات : الأول تأثيرها في تحوير الرأسمالية ، والثاني تأثيرها في حياة العامل . أما تأثيرها في الرأسمالية فإخراجها رؤوس الأموال من مجرد الملكية للأرض والبناء أو للأثاث إلى أموال منتجة بذاتها ، رؤوس أموال « دائمة » على ما يقول الاقتصاديون ، تخرج من يد صاحبها وترد اليه مرات عديدة في أوقات متفاوتة على حسب طبيعة ما توظف فيه من الأعمال ، فصارت بذلك أوثق ارتباطاً

بحياة الجماهير بعد أن كانت وثيقة الرابطة بصاحبها وحده ، شأنها في عصور الاقطاع . ومن ناحية أن رؤوس الأموال أصبحت وثيقة الارتباط بالناس وبالعمال خاصة ، نشأ الكلام في النظام الرأسمالي في العصر الحديث ، ومن الكلام فيه تفرعت المذاهب الاجتماعية الحديثة ، وإن شئت أن تكون أكثر تحديداً ، فقل تجددت تلك المذاهب بعد أن طمس عليها عصر الظلامية الفكرية القاتم من السنين ، وبعد أن طغى عليها عسف نظام الاقطاع حتى حدود العصر الحديث . هذا من حيث أثرها في الرأسمالية . أما من حيث تأثير تلك الآلات في حياة العامل ، فان الانقلاب كان أعظم . فان العامل قبيل عصر الآلات كان سيّد نفسه ، إذ كان يعمل تحت سلطتين : إما سلطة الأسرة وإما سلطة الطائفة . فاذا كان عمله في وسط أسرته وإنتاجه له وبها ، كانت الأسرة هي وحدها صاحبة السلطة العليا عليه وفائدة عمله عائدة عليه وعليها . وإذا كان عمله طائفي أو مهني فان أصحاب المهن كانوا ينتظمون طوائف كل طائفة تختص بحرفة أو صناعة خاصة تقتسم العمل وتقتسم فائدته . فلما ظهرت الآلة ظهرت معها العامل وشيدت معها المدن الصناعية ، فخرج العامل من جو السيادة الذاتية إلى جو الاستعباد في ظل رأس المال والعمل . ونسي مهارته اليدوية التي كانت رأسماله وملاذ حريته ، ووقف مكتوفاً أمام آلة تسيره وتحدد عمله وتحدد أجره ، وفقد إرادته أمام الآلة ، وفرضت الآلة عليه إرادتها ، فأصبح هو الآلة وأصبحت الآلة انساناً ، أشبه شيء بأفعى دانتي وانسانه . ومن هنا نشأت كل المشكلات التي نسميها اليوم مشكلات النظام الاقتصادي ، ونشأت إلى جانبها المذاهب الاجتماعية الحديثة على اختلاف ضروبها وتباين صورها .

***

هذه هي الظروف التي حفت بالعالم الاوربي منذ نشوء الآلة ، أو بالحري الظروف التي خطت على أوربا ثوب الانقلاب الصناعي . فهل نحن مسوقون في مثل هذه الطريق ؟ نقول نعم نحن مسوقون فيها وبخطوات واسعة سوف تستعجلها هذه الحرب عندما تضع أوزارها . صائرون فيها من ناحيتين : من ناحية العامل ، ومن ناحية الفلاح . أما مشكلات العامل فقد سبقتنا اليها أوربا ، ومشكلات العامل هنالك ستكون هي بعينها مشكلات العامل هنا . وتأثير رأس المال هناك ، سيكون تأثيره هنا . ولكن تأثير ذلك الانقلاب في الفلاح المصري ، أمر يحتاج الى شيء من التفكير وشيء من التطبيق ، هو موضوع كلامنا اليوم .

لنسأل أولاً : هل حدث في حياة الزارع المصري انقلاب أشبه بالانقلاب الصناعي الذي

حدث في أوربا ؟ نعم حدث ذلك الانقلاب . وبدأ منذ عصر محمد علي . ولكن خطواته كانت وئيدة ، ثم تسارعت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وزاد تسارعها في القرن العشرين .

***

عاش الفلاح المصري خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر عيشه الذي ألفه في عصر المماليك ، وورثه عن العصور التي تقدمته . وترجع هذه الوراثة إلى العصر الاغريقي ثم إلى العصر الروماني من بعده . عاش هذه الحقبة غير شاعر بأنه يتقدم نحو انقلاب خطير بدأته سياسة محمد علي في مصر . فصار من حيث الوضع السياسي أكثر اتصالاً بأوربا تشارك في بعض حروبها وتطلع من طريق تلك السياسة الى السيادة بحريًّا على الجزء الشرقي من البحر المتوسط . ومن حيث الانتاج الزراعي أصبح أكثر اتصالاً بالأسواق العالمية التي تصرف فيها أهم محصولاته وأهمها القطن . ولكن هذه الصلة بدأت صغيرة وأخذت تنمو على الأيام . هذا الانقلاب الكبير كانت له آثاره الجلى في حياة الفلاح المصري .

فان الأسر الزراعية في الزمن الأول كانت تعيش مكتفية الحاجة بعملها الذاتي . تزرع قطعة من الأرض تكفيها مؤونة العيش ، وتغزل قليلاً من القطن ثم تنسجه على مناسج منزلية ، وتستغل دواجنها لحاجة حياتها ، وتطحن حبها في طواحين إما يديرها الهواء وإما تجرها الدواب . وكان عمل الفلاح قليلاً فان أكثر الأرض كانت بوراً وطرق الري بدائية ، إذ كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على الفيضان وحده وطرق الصرف كانت معدومة بالمرة . فكان ما يزرع من الأرض جزء ضئيل ، ولكنه كان يكفي الحاجة ويزيد عليها . كان شأن الفلاح المصري في ذلك الوقت شأن الفلاح الأوربي قبل عصر الآلات . زراعة تكفي الحاجة ، وصناعة يدوية بسيطة معملها البيت وسوقها القرية .

ولكن الآلات أخذت تعمل عملها الدائب في حياة الفلاح المصري وأثرت فيه كما أثرت في حياة الفلاح الأوربي .

فان اختراع الآلة البخارية زاد سرعة الانتقال برًّا وبحراً وزادت الصلة بين مصر وجاراتها من الشمال ، وعمت مشروعات الري وتلتها مشروعات الصرف ووردت المنسوجات الأوربية رخيصة الثمن ، فقضت على المغزل والمنسج واستبدلت طواحين الهواء والدواب بالطواحين الآلية وأخذ المحراث الآلي يحل محل المحراث الذي تجره الثيران ، وسلكت السيارات الطرق ، وبالجملة قضى الحديد على جزء كبير من حياة الفلاح الأولى ، وسيقضي بعد

الحرب مباشرة على الجزء الباقي منها . فما هي الآثار التي ستترتب على مثل هذا الانقلاب وما هي المدة التي أعددناها لنتوقى نتائجها ؟ .

* **

إذا وضعت الحرب أوزارها وسوق مصر حائمة والبلاد الصناعية في حاجة إلى الانتاج وتصريف ما تنتج، غمرت مصر بصنوف من البضائع أهمها الآلات الزراعية . آلات الحرث والري والبذر وجمع القطن والطحن والحصد والدرس والتذرية ؛ وجميع هذه الأشياء سوف توفر الأيدي العاملة في الريف بحيث يصبح الفلاح في شبه تعطل أكثر أيام السنة ، ويفقد بذلك ثمانين في المئة على الأقل مما كان يربح من أجر عمله في المزارع الكبرى وهو شيء كان على كل حال يقوم بسد جزء من حاجته . وستنشأ المعامل الكبرى حوالي بعض المدن ، فتمتص قليلاً من هذه الأيدي المتعطلة ، ولكنها مهما امتصت فسيبقى الجزء الأكبر من الأيدي متعطلاً عن العمل قليل الكسب، فينزل مستواه إلى أقل من المستوى الذي هو فيه الآن. ومن هنا تنشأ مشكلتان : مشكلة عمالية : تقوم في المدن الصناعية، وسوف يكون فيها العامل مضغوطاً من جميع نواحيه . فرأس المال يريد الربح بأقصى نسبة فينزل أجور العمال لتوفر الأيدي في الريف . ومشكلة الفلاح : الذي سيظل متعطلاً ولا يجد باباً يكسب منه أجر العمل ؛ وسيقتصر عمله على غيطه الصغير الذي لا يكاد يقوم الآن بأوده بعد دفع نفقات الزراعة وإيجار الأرض .

هذه هي مشكلة الريف بغير إطناب . هذه هي المشكلة التي نحن مقبلون عليها . فما هي العدة التي أعددناها لنتوقى نتائجها الاجتماعية ؟

لا شك في أن رفع مستوى الفلاح له طريق واحد . طريق لا ثاني له . زد ثروته ترفع مستواه . فما هي الفائدة في أن تعرفه معنى النظافة وهو لا يجد ثمن الصابون ؟ وما هي الفائدة في أن تعلمه قواعد الصحة وهو لا يجد ثمن الدواء ؟ وقس على ذلك كل وجوه الاصلاح التي ذكرها كثير من الكتاب في أزمان وظروف متفرقة . إنها ولا شك وجوه إصلاح ضرورية ، ولكنها لن تنتج ولن تثمر أية ثمرة والفلاح في فقره المدقع الشديد . زد ثروته ترفع مستواه .

ونحن بعد مقدمون على عصر سوف تشتد فيه فاقة الفلاح . عصر ستقوم فيه الآلة مقام اليد العاملة في المصنع وفي الحقل ، وسيفقد الفلاح مصدراً من مصادر رزقه : ثلاثة أرباع أجر عمله اليدوي في الحقول التي سوف يلمع فيها صوت الآلات ، فتجر على الفلاح الفقر

والخماصة ، فرق ما هو فيه من فقر وخصاصة . آلات سوف تجلجل في الحقول فينكر صوتها بالخراب الاجتماعي ، وإن أدت إلى زيادة الانتاج وقلة النفقات . ولكنها أرباح ليس للفلاح العامل أية فائدة منها . بل ستكون مصدر ذله واستعباده ، أكثر مما هو فيه من استعباد .

وعندي أن الحل الذي تتطلبه هذه المشكلة له وجه واحد . فالواقع أن الأيدي المتعطلة في الريف ستزيد بعد الحرب ، وكسب عمل الفلاح سيقل فينزل كسبه وإيراده ، وسيحل به فقر عظيم . فاذا استطعنا أن نلجأ إلى وسيلة نتقي بها ذلك الشر كان هذا أمجد ما يقوم به أبناء هذا العصر لمستقبل مصر ، أمهم العظمى .

لكي نتقي هذا الشر ينبغي لنا أن نشيد دعائم الصناعات الزراعية في معامل صغيرة تنتشر بين القرى والضياع . صناعات تتصل بالانتاج الزراعي من جميع وجوهه . صناعات الألبان واللحوم الباردة والخضر المحفوظة وتربية الدواجن والنحل إلى غير ذلك من آلاف الصناعات التي يمكن استغلالها حتى من النفايات التي تتكدس من حول القرى وفي المدن . ويكون لنا إلى جانب هذا اسطول للنقل تام العدة يصرف هذه المصنوعات في أنحاء العالم حيث تطلب وحيث تستهلك . بذلك نجد للأيدي المتعطلة عملاً يعود عليها بكسب ، ونرفع مستوى الفلاح من رجل منتج بالزراعة إلى رجل منتج بالصناعة أيضاً . هذا عمل ينبغي أن تعد له الحكومة يد المساعدة الفعالة بخبرائها وعالمها . وإلاَّ فالنتيجة ما وصفنا . ولله در الشاعر البراري إذ تقول مخاطباً هدهد سليمان :

خدمت سليمان في ملكه وبلّغته نبأ عن سبأ
وقلت : أحط بما لم تحط به واجترأت أمام الملأ
وحُملت منه كتاباً كريماً فعززت بالخبر المبتدأ
فيمم أولي الأمر منا وقل معي نبأ يا له من نبأ
حسام الحقول : وأعني به فلاّح مصر ملاء الصدأ
غذاها وجاع وصان وضاع وأروى الضياع وقاسى الظمأ
وأمراضه فوق هذا وذاك تناهبه كباح الكلأ
ورث الحديد من حوله ولم يلق بينهما ملتجأ
فيا ليت شعري : متى يعتني به ويضاء له ما أظلما

مرسلات مع الريح

فوق الصخرة

السوداء

«ورست بنا السفينة في مرفأ خيل إلينا أن ساكنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه . عيون تلمع كأنها الالماس تحت جباه لوحتها الشمس الحامية ، فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . أي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ »

ترنحت السفينة فوق سطح الماء ولطمها الهواء فتمايلت ، ثم استدارت شامخة بأنفها السحوق نحو السماء ، وأرسلت من جوفها ذلك العويل الطويل كأنما هي تودع اليابسة قبل أن يحتضنها اليمّ الواسع العميق ، واستقبلت مخرج ميناء « دوفر » لتنساب منه إلى المحيط الأزرق ، المترامي تحت قدميها ، فتمخر فيه باسم الله مجريها .

ومضت تبتعد عن الشاطىء شيئاً بعد شيء ، والشاطىء يغيب عنها هوناً على هوناً حتى بدا كأنه ضباب كثيف لا تستبين فيه من شيء ، الا قمم المطرّحات من الأبنية ورءوس المداخن ترسل دخانها الأسود كأنما هي مجموعة من البراكين الثائرة ترسل من جوفها أفاعيل طبيعية غاضبة

ولفنا الماء ، واكتنفنا الغسق ، وأخذت آلات السفينة تهدر تهدار البراكين ، تجالد اليمّ واليمّ يجالدها ، تبيح صدره بحيزومها وتضربه بذنبها الملوي كأنها أفعى تسترق الخطو في الظلام الندلس ، فيرد كيدها بأمواج كالجبال .

وبدت نجوم الليل ترسل بصيصها إلى ذلك العالم الأصمّ الذي كنا نجتازه ، وأخذت الشعرى تبرق وتكظم ، كالنادة اللعوب ، وبدا الفرقدان : وإذا شئت :

فاسأل الفرقدين عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لمدلج في سواد

وأكل الناس وشربوا ومرحوا وأخذ السكرى يلاعب معاقد أجفانهم ، بعد أن أنهكهم الرقص وفعل يوم الريح ، وحتى للريح متاعبه ، هذا والسفينة لا تأخذها سنة ، والبحر يقظ يغالبها وتغالبه . وكيف ينام وهو ذلك الشيء الذي استيقظ مع الخليقة ولم تغف له عين ، ولا سكنت له حركة ، ولا اضطرب له قلب ، ولا اهتزّ له جنان . فكيف به يعبأ بتلك الذرّة من الهشيم ؟ انها تداعبه ولا ريب . هي ألعبة من ألعبائه ، بل خطرة من خطراته . كلاّ ، بل حلم مغيّب في جوف الزمن .

وما ذلك الصفير الأجش الذي يضرب السفينة بنبراته السريعة القوية ، فتميل ذات اليمين وذات الشمال ؟ انه ولا شك عبارات الترحاب يرسلها البحر إلى الذين ينزلون رحابه الواسعة .

وما ذلك الدوي البعيد الذي يكاد يفجر الصدور بعمقه ويخلع القلوب بروعته . تلك هي العاصفة : هي أغنية الأزل الأول .

* * *

كنا في منتصف يناير والهواء زمهرير والماء زبد يتهادى فوق قمم من الموج أشبه بالتلال المتلاحقة في صحراء شهباء ، سطع عليها قمر مريض الضوء باهت اللون . ولم يبق على ظهر السفينة انسان يحيي هذه الطبيعة الصاخبة الغضبى ، فقد لاذ كل منهم بمنجى منها ، ولكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه .

واستدارت السفينة من حول شاطىء فرنسا الغربي وتمت نحو الجنوب وكلما أمعنت فيه انتعشت الأرواح ومرحت النفوس فقد استحال الهواء البارد المثلوج نسمات تخاطب القلب والعقل ، وأخذت ذكاء بأبهتها السماوية ، تحيينا كل صباح بأشعتها الذهبية ، وتردعنا كل مساء وهي منحدرة في جوف اليمّ الواسع مثيرة الينا بألسنة صفراء من نارها المتسعرة ، فكأنما هي في تحيتها ووداعها صديق من فقد الصديق ، في مثل عالمنا الذي كنا نقطع رحابه ، فوق ذات ألواح ودسر . . .

فلما كانت السفينة في نطاق دائرة الاستواء ، تغير لون الماء فاذا به أحمر قانٍ كأنه الدم المهراق في رقعة لا يحدها البصر . وكان الى جانبي عالم أخذ طريقه الى الجزء الجنوبي من كرة الارض ليبحث طبائع بعض الاحياء في وهاد افريقية رطابها الموحشة . فلما أبديت دهشتي من تلك الظاهرة قال لا تدهش فالماء هو الماء ، وانما اللون من حيوانات مجهرية تتكاثر ثم تتكاثر في بعض فصول السنة ، فتصبغ البحر بهذا اللون الاحمر الارجواني . ثم انظر ألا ترى أشياء تثب من الماء ثم تغوص . إذا اقتربت سفينتنا منها فسوف تطير . هذا هو الخطاف ، وهو جنس من السمك الطيار يتخذ من زعانفه أجنحة ، فاذا أزعجها مزعج هبت هاربة ، تضرب بزعانفها الجانبية فترتفع فوق سطح الماء وتسير في الهواء مسافة . فاذا أخذ منها الروع ، وجدت من صدر البحر مثوى وئيداً واسع الجنبات . ثم ها هي ذي الصخرة السوداء .

***

أشرفنا عليها وهي قائمة في وسط اليم كأنها الحلم الفزع في خيال مضطرب . وقد استطالت قممها المشرفة على البحر وراحت تتطلع إلى سماء شملها الغيم الكثيف ، فكأنما هي امرأة مهجورة تناجي السماء بآلامها المرتسمة على صفحتها المربدة من ظلم الايام .

ودنت بنا السفينة في مرفأ خُيِّل الينا أن ما كنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه ، عيون تلمع كأنها الالماس تحت جباهٍ لوحتها الشمس الحامية فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . اي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ ولكن السفينة لا بد من أن تتزود ، فألقت مراسيها على الصخرة السوداء ، يوماً وليلة .

وحملنا حب الاستطلاع على النزول إلى البرّ ، وأخذنا نضرب في نواحي المدينة حتى ألفينا عصا النوى في مكان هو مجتمع الادلاء ، فقال أحدهم : أأدلكم على الكوخ الأثري ؟ قلنا وما هو ؟ قال كوخ فيه كتاب سطوره الحياة ، وسطور الحياة كلها مكتوبة على صفحة واحدة خطتها يد القدر . فسأله أحدنا أورقة تعني ؟ قال نعم .

ووقفنا أمام الكوخ الأثري فاذا به حظيرة بها جياد لحامية تلك الصخرة السوداء . رأينا الجياد . ولكن لم نر الكتاب ولا الصفحة التي خطتها يد القدر . قال لا تعجلوا ، فهنا في هذه الحجرة نزل ضيف جاء من وراء البحار ، وظل بها سنين ، فلما مات اتخذ الكوخ حظيرة للجياد .

ولكن هذه الحجرة قد تركت مغلقة احتراماً لذكرى ذلك الضيف . وأنتم ترون كيف

على بها . فتلك الحشائش النابتة من خلال الجدران ، ومن بين الشقوق التي تتخلّل الأرض، دليل على أن أصحاب الأمر هنا لم ينتهكوا حرمتها . وفي هذا القصر ورقة مكتوبة هي طلبتكم : وأحظنا ننظر في الورقة التي خطتها يد القدر .

« في تسعة الأيام الأخيرة من حياته ظلّ هادئاً وفي غيبوبة . كانت الحركة تؤلمه ، وحتى اللمس كان يؤذيه . وفي اليوم الخامس من مايو تلفظ ببضع كلمات غير مستبانة، ولكن رفيقه « مونتولون » ظن أنه يقول « فرنسا — الجيش — رأس الجيش » .

«وما إن تحرك لسانه بهذه الالفاظ حتى وثب من فراشه ثائراً وجذب معهُ «مونتولون» الذي حاول أن يثنيه إلى الرشد ، فانطرحا معاً على الأرض . كان ذلك آخر جهد بذلته ارادة لا تردّ وقوة لا تقهر».

«وبعد صراع، استطاع مونتولون أن يرجعه إلى الفراش مستعيناً بزميله «أوشيو». وظلّ الريض في فراشه ساكناً حتى كانت الساعة الحادية من المساء، فنزل آخر أنفاسه. كانت العاصفة هوجاء ترسل بأهازيجها الصاخبة في خارج الكوخ ، الذي أخذ يهتز من شدتها كما لو كانت زلزالاً صارماً انتفضت منه الأرض . ها هي ذي العاصفة تقتلع شجرة الصفصاف التي كان يجلس اليها ذلك الخالد الفاني . وإذ كانت العاصفة تقتلع تلك الشجرة التي تفيأها الضيف الراحل، كان «مرشان»، أحد رجاله، يسجيه بالعباءة التي كان يلتفع بها ظاهر الجيوش في موقعة مارنجو » .

* * *

يا لك من صخرة سوداء ! أنت يا جزيرة القديسة هيلانة . ويا لكَ من رجل ! أنت يا ابن فرنسا ! أنتَ يا نابوليون !

* * *

قبره الآن في باريس ، وقد دو « البكري » إذ يقول :

« وقفت بقبر نابوليون أمس ، أحدث النفس ، بما في ذلك الرمس ، فإذا سكون بعد صولة ، وقبر في جوف دولة ، وصولجان كرته الأرض ، أضحى مخراق لاعب ، وسرير كان عليه البسط والقبض ، أمسى ملتقى ناع وناعب .

الكهرباء

وتشخيص الامراض

طرق ثابتة لا تكذبك ولا تضللك

اذا أخذت بضع نقط من دم حي ماء ومزجتها بمحلول من كلوريد النحاس، ونثرت الزيج على شريحة من زجاج وتركتها تتبخر ؛ حصلت على البلور. فاذا كان الدم مأخوذاً من حيوان صحيح ، فان البلورات تأخذ شكلا خاصاً . وإذا كان مريضاً فبناء البلورات السوي يتكيف

كان طبيب الريف في الزمن الماضي يعتمد في استجلاء المرض على حواسه الخمس قائلاً ، على سمعه وبصره وشمه ولمسه وذوقه . ولقد جرى في ذلك على سنّة اتبعت وسمج رسم . أما طبيب العصر الحديث فسلاحه التشخيصي علمان: الطبيعة والكيمياء .

أمضى دكتور «هرولد سكستون بار» من مدرسة الطب في جامعة «ييل» ، سنين منصرفاً إلى دراسة الظاهرات الكهربية في الجسم البشري ، وانتهى به الأمر إلى تركيب آلة تقيس التغييرات الكهربية في الجسم ، حتى إذا ضؤلت فلم تتجاوز خمساً على مليون من الفولت الكهربي

وبهذه الآلة استطاع أن يستكشف ويسجل ظاهرة تكوّن البيضات في الأرانب والسنانير والقطاء ، وتكوين أفراخ الدجاج والسمندل وهي في البيض ، والفروق بين الفئران التي قدّر لها أن تصاب بنمو سرطاني والفئران التي سوف لا تصاب به البتة . فلكل مرض من الأمراض دلالته الكهربية الخاصة ، حتى قبل وجود علامات ظاهرة تنم عنه .

وقد مضى الآن عشرون سنة منذ بدأ دكتور « إهرنفريد فيفر » العالم السويسري ، يدرس بلورات الدم وعلاقتها بالمرض . فالبلور كما هو معروف ، عبارة عن ظاهرة تحصل عند ما تتجمع جزيئات مادة ما ، على نسق خاص . فاذا التقت أخذت اشكالاً هندسية يكون بعضها ظاهراً للعين المجردة .

فاذا أخذت بضع نقط من الدم من حي ما ، ومزجتها بمحلول من كلوريد النحاس ، ونشرت المزيج على شريحة من زجاج وتركتها تتبخر ، حصلت على التبلور . فاذا كان الدم مأخوذاً من حيوان صحيح ، فان البلورات تأخذ شكلاً خاصًا . وإذا كان مريضاً فبناء البلورات السوي بتكيف فشال من التنسيق البلوري يدل على فقر الدم، وآخر على السرطان، وثالث على السل ، وهكذا .

وكل مادة تتبلور في صورة محدودة بينة تم عن حقيقتها . وقد كشف دكتور « فيفر » عن أن هذه البلورات عالية الحساسية ، حتى ان إضافة نقطة من سائل غريب تحدث تحويراً عظيماً في شكلها . وبعد آلاف من التجارب سهل عليه أن يستنتج نتائج في خصائص المواد التي تحدث تلك التحويرات .

واشترك دكتور « بجوين » من جامعة الطب في « بوردو » مع دكتور « فيفر » في درس خصائص بلورات الامراض ، وكتب تقريراً عن النتائج إلى أكاديمي العلوم الطبية في فرنسا . ولقد وصل دكتور « بجوين » بهذه الطريقة إلى نتائج ذات بال . فمن مجرد فحص بلورات الدم صح تشخيصه في ٣٠ حالة من ٣١ حالة سرطانية ، وكانت الحالة الواحدة والثلاثون حالة سرطان مصحوب بزهري ، واصطحاب المرضين أعطى مثالاً آخر من البلورات . ومن تسع حالات سل شخص دكتور بجوين ثماني حالات تشخيصاً تامًا . والحالة التاسعة كانت مصحوبة بالتهاب الخشاء — Mastoid — والتهاب سحائي ، فحورت البلورات وضللت الطبيب .

وطريقة دكتور « بجوين وفيفر » في بحث البلورات ودلالتها على الامراض غير معروفة بدقة خارج فرنسا . بيد أنها طريقة ما فتئت في طور التجربة . فان امراضاً كثيرة ما تزال تحت الدرس والتبويب بهذه الطريقة . على أن المستقبل يدل على إمكان الاهتداء إلى نتائج فذة باهرة .

وتصوير انسان العين معتاداً درس حركاته وتفسير دلالاتها في مختلف الأمراض . فان عدداً عظيماً من الاطباء قد أيقنوا بأن انسان العين يسلك سلوكاً خاصًا يختلف باختلاف الأمراض التي تصيب الجسم ، وبخاصة الأمراض التي تصيب الدماغ (المخ) والأعصاب . ولكن حركات انسان العين هي حركات سريعة يتعذر تتبعها . فاذا أريد تتبعها بالعين المجردة ، فمثل هذا الفحص يقود الى نتائج تتوقف صحتها في أكثر الأمر على خصائص الفاحص الذاتية .

ومنذ خمسة عشر عاماً عمل دكتور « أوتو لوتال » من جامعة « بون » بألمانيا على

تذليل هذه الصعوبة . فصمم على نقل ارتكاسات انسان العين على ورق مصوَّر، وبذلك يمكن الوصول الى نتائج لاتحتمل الشك . وقامت أمامه عقبة . فان تصوير انسان العين بتلك الطريقة يحتاج الى ضوء شديد وقت التصوير من غير أن ينقبض انسان العين والضوء واقع عليه . وبعد مشاق استطاع أن يعمل جهازاً يستعمل فيه أشعة الضوء دون الاحمر التي تسجِّل على رقوق للتصوير الضوئي ، وهي أشعة لا تكشفها العين، فلا يكون لها تأثير على انسانها .

ومن المعروف ان انسان العين يتكيَّف متغيراً بحسب الحالات الانفعالية . والانعكاسات التي تصيبه تتوقف على حال الأعصاب التي تحكم العضلات فتفتح انسان العين أو تقبضه . فاذا لم تقم هذه الأعصاب بوظيفتها خير قيام نتيجة لكبر السن أو الادمان في شرب الخمور أو استعمال العقاقير أو وجود مرض عضوي كالزهري ، فان سلوك انسان العين في تلك الحالات وأمثالها يختلف عن سلوكه في الأفراد الاسوياء . ولما كانت أنامي العيون غاية في الحساسية وتعكس تأثيرات الأمراض العصبية منذ بداياتها الاولى ، فان ذلك يساعد ولا شبهة على التشخيص وسرعة العلاج الناجع الذي يكون فيه لعنصر الزمن أثرٌ هامٌ جدًّا .

يوضع المريض تحت تأثير منبهات متفرقة — كاطلاق قذيفة بندقية أو مفاجأته بشعاع قوي لا يتوقعه — وتؤخذ صورة لارتكاسات انسان عينه . وتؤخذ الرقوق المسجلة من الصوّرة وتستظهر . وإنك لتعجب إذ ترى أن هذه السجلات تفصح لك عن حالة أعصاب المريض مثل الجلاء الذي تظهرك به الأشعة السينية على أعضائه الداخلة .

وتصوير إنسان العين يمكن الأطباء من تشخيص الاضطرابات العصبية وتقييم خطورتها فيرسمون بذلك خطة العلاج والشفاء . ولكن لوحظ أن المريض لا يكون قد شفي تماماً إذا عادت حركات انسان عينه إلى حالتها السوية . ولهذا تابع دكتور « لوتسال » بحوثه في سويسرا، مقتنعاً بأن تصوير انسان العين سيكون له أثر بارز في القضاء على الأمراض العقلية

إذا وضع لوح من الزجاج يحتوي على أوكسيد النيكل أمام شعاع « بنفسجي » حدث ضوء إلى السواد . فاذا بحثت أشياء ماتحت ذلك الضوء الأسود السحري ، فانها تعرب عن خصائص لا يفصح عنها الضوء العادي .

ولقد طرأ لدكتور « أوتو وتش » من جامعة لبرج فكرة أخذ عينات من الدم البشري يحفظها في أنابيب حتى تترسب كريات الدم الحمر في قاعها ، ثم يفحص عن المصل الرائق الأصفر الذي يكون في عنق تلك الأنابيب تحت ذلك الضوء الأسود . فاذا عرض المصل إلى ذلك الضوء الأسود المنبعث من الشعاع فوق البنفسجي ، ظهرت فيه ألوان مختلفة ، متدرجة في ظلال من

الأصفر المخضر الى الأخضر الزيتوني إلى الأزرق الزرجدي أو الأزرق البيض أو اللون الارجواني ، وبعضها شفاف ، والبعض الآخر يمثل كثافة اللبن .

***

كانت الشكلة الثانية هي : كيف تقرأ بدقة تلك الرسائل التي يسجلها دستور تلك الألوان المختلفة العجيبة ؟ حُلَّ كل مصل على حدة ونقي من كل مايحتمل أن يكون فيه من الفصيات (bacteria) الشفافة بتعقيمه تعقيماً تاماً . وهنا حلت العضلة ، عند ما ظهر للباحثين الفرق الجلي بين المصل المستخلص من دم أشخاص أصحاء والمصل المستخلص من أشخاص مرضى .

أما الانبثاقات اللونية التي ظهرت عن مصل أبدان صحيحة ، فكان في كل حالة من الحالات عبارة عن لون خفيف باهت أو أخضر زيتوني إلى الكمدة . في حين أن مصل الأبدان المرضى أعطى ضوءاً ظاهر اللون ، فكان ذلك برهان قوي على أن للمرض تغييراً في الدم يظهر تحت فعل الأشعة فوق البنفسجية . فلما أظهرت البحوث التالية أن مصل ذوي السل له لون خاص ، ومصل ذوي السرطان لون آخر ، وذوو تصلب الشرايين لون ثالث ، استنتج أن الأمراض المختلفة يمكن تمييزها من طريق الألوان التي تعطيها الامصال المتفرقة ، إذا عولجت بالضوء الأسود .

وعلى الرغم من أن هناك خفايا أخرى يتبغي الوصول اليها ، وأن الأمراض لم تبوَّب كلها بحسب الألوان المنبثة عن أمصال الدم ، فإن تحسيناً بيناً في دقة الجهاز المستعمل في ذلك البحث ، قد أعان الأطباء على أن يعرفوا أن الانبثاق اللوني في بعض الأمراض يتضمن خطوطاً تكون مفقودة في غيرها .

وتقدم دكتور « هاجان » من جامعة كولومبي خطوة أخرى في تحسين هذه الوسيلة . فهناك فصيات (bacteria) خاصة وجراثيم أخرى صغيرة جداً جد الصغر ، حتى لا تكشفها المجاهر العادية . وهذه تدعى الترشحات (Viruses) وتحدث أمراضاً مثل مرض البغاء والحمى والحمى الصفراء . فاذا نظر في هذه الترشحات من خلال الضوء الأسود ، فانها تعطي ألواناً شفافة . وهذا البحث ما يزال في بداياته ، وقد يحدث في المستقبل أن يمكن الكشف عن هذه العضويات من طريق تلك الألوان النوعية ، التي تنعكس منها تحت تأثير الضوء الأسود .

قمة الدنيا

إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات اليها

فسوف تقاسي آلاماً وتلاقي كروباً عقلية. ستشعر بأنك منكور من كل انسان. ستتعذب. سيخيل اليك انه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن سوف يمحي. ستعطي أكثر مما أخذت. و تصورت. ستكون رجلا عظيما في يديك قوة، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف. هذا ما سطر!

ألم تشعر يوماً بأنك تتوقع حدوث شيء لا تعلم ما هو ولا ما هي علاقتك به؟ ألم تفعل شيئاً مجبراً ولا تعلم لماذا فعلته، فرد عنك عادية أو وجهك توجيهاً ترضاه؟ نعم قد اتفق مثل ذلك للكثيرين منا، واتفق أكثر منه لقلائل من الذين أحاطت بهم ظروف بلغت من اليأس حد التسليم بالقدر المقدور. ولا شك عندي في أن لتلك المنزلة التي قال بها بعض المتصوفين وسموها حالة الكشف، حقيقة ترجع اليها في الطبيعة الانسانية. وليست هي من الأشياء التي يحيطها العلم بطرقه المعروفة، وهي طرق تعتمد أول شيء على الحواس، وإنما هي أشياء ترجع إلى ما سماه الفلاسفة «عالم المجهول». فالعلم لم يصل إلى كل شيء، ولا يدعي القدرة على الوصول إلى كل شيء. ولكن «عالم المجهول» درجات تبدأ من حقيقة علمية بسيطة أو قانون كيمياوي أو طبيعي يكون تحت يدنا ويغيب عنا كشفه، إلى الظاهرات الفذة التي لا يعللها العلم ولا يحللها العقل، الا بطريق واحد: طريق الاعتراف بالعجز إزاءها

هذه حادثة واقعية نرويها ونتذكر مصدرها وشخصيها، ولا يزال الامر معنا وفي عهدنا. لنطلب لها تعليلاً ممن يستطيع أن يعللها، على أن لا ترد إلى «المجهول»، الذي هو في الواقع اعتراف بالعجز عن التعليل.

***

كنا في الصحراء. في جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف. سيد وعبيدة، كلاهما تلقى العلم في أرقى الجامعات، وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لا صديق له. تفد الماء

خلف الدواب ، ومعهما رجال من الأدلاء والحراس، والعمران قصي بعيد ، والاتجاه في أي متجه من غير علم به ، معناه الموت المحقق في جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا اليها طريقاً غير مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منهما ومن رجالها القنوط ، وأبيحت الابل وحلت القافلة في ذلك القفر لا يؤنس لها إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لا محالة : فإما طريق إلى الدنيا ، وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلماً، وهو بعد ممن لم يمكفوا على التصوف يوماً واحداً من أيام حياتهم. حلم بامرأة بيضاء او إنها تلبس البياض ، لم يستطع أن يصفها ، ولكنها تنبأت بما سوف يقع ، وتكلمت ولكن بلغة الرموز . ولكن هذا الحلم قد اتخذ أول الأمر موضع تسلية ومحل سخرية . ولكن السيد أكد أن ما رأى ليس حلماً . لقد كان أكثر من حلم . إنها رؤيا تكاد تكون في يقظة غير تامة ، في صحوة عقل مضطرب من هول الموقف .

وقفت تلك المرأة التي تراءت له إلى جانبه في الصحراء بمقربة من محط الرحال . وكان يرى خيالها على الأرض في ضوء النجوم ، ورأى آثار قدميها في الرمال ، قالت له — « لا تتزعج ، سوف تصل .. ... ولكن عليك أن تقتحم ثلاثة حوائط قبل أن تصل . وقبل النهاية ستضطر إلى تغيير طريق سيرك لتتقي بذلك أجساماً ميتة »

في الصباح جلس السيد والسيدة يناقشان في هذه الرؤيا . ولكنهما لم يشكا هذه المرة في حقيقة الامر ، وعللا الحوائط بعقبات سوف تصادفهما ، عقبات انسانية أو طبيعية ، سوف يجتازانها، وعللا الأجسام الميتة بموقعة تحصل .

في خلال الأسابيع التي تلت تلك الرؤيا ، أحيط بهم ثلاث مرات . أحاط بهم بدو مغادون . وسجنوا في الخيام هما ورجالها ، والبدو من حولهم يناقشون في قتلهم ، وطريقة القتل . وظلا على ذلك حتى أدركهم من أنقذهم .

فلما كان آخر يوم في رحلتهم بين الكثبان المتموجة ، اضطروا إلى الدوران حول وادٍ عميق فيه جثث أموات لصقت عضلاتهم الصفر بعظامهم. جثث آدميين ودواب. هذه قافلة قتلها العطش.

رأى السيد بعد ذلك رؤيا ثانية . ففي جوف تلك الصحراء المجرودة العمياء التي لم تخترقها قافلة من قبل ، رأى تلك المرأة في ثوب أبيض مقبلة نحوه من خلال الرمال الواسعة : وقالت له : « خذ السلسلة التي تعلقها في عنقك وتعال معي إلى قمة هذا الكثيب . ثم أدفنها هنالك. وفي الصباح ، إذا حضرت لتأخذها ، سوف ترى آثار قدميك وقدمي معاً . وبذلك تعرف أنك لم تكن في حلم » .

فعل السيد كما أمر، فلما انحدرا من فوق الكثيب قالت له المرأة: «سوف تقاسي آلاماً وتلقى كروباً عقلية. ستشعر بأنك منكور من كل انسان. ستخان. سيخيل اليك إنه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن، سوف يمضي. ستعطى أكثر مما أمات أو تصورت. ستكون رجلاً عظيماً، في يديك قوة، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف. هذا ما سُطِّر».

فسألها السيد: وما بال السيدة التي معي؟ ماذا سيحل بها؟»

وفي اليوم التالي قصَّ السيد على رفيقته كيف أن الصوت الذي كان يخاطبه قد تلعثم وارتبك، فأصبح أقرب إلى البشرية، وتفوَّه بكلمات تخللها توقف وتفكير: هذه معانيها — «لا أعرف شيئاً عنها. إنها ليست من ملتنا. ولا أعرف لماذا..... ولكنها سوف تنجو في كل الظروف. هذا محقق. سيحيط بها خطر عظيم، ولكن لا يصيبها شيء. سيحل بها حزن ويأس، ولكنها ستنجو دائماً. ليس في يدها دفع شيء. ليس ذلك في طوق إرادتها. ستسلك طرقاً عجيبة، قد تؤدي إلى الموت — ولكن ليس من نصيبها أن تموت في ذلك. هذا ما كُتب. سوف تنجو».

عند ما ظهر الفجر الكاذب خيطاً أبيض الاهاب باهت اللون فوق الأفق، مبشراً باقتراب الشمس من البزوغ من رمال الصحراء الشرقية، اصطحب السيد رفيقته، وأراها آثار أقدامه ذاهبة إلى أعلا الكثيب، ثم هابطة منه، وإلى جانبها آثار ظاهرة جلية متجانفة للخطو. كانت آثار قدمين عاريتين، ضغطتا على الرمل ضغطاً خفيفاً ليناً، والنسمات من ورائها تسفي عليها الرمال الناعمة.

نظرا إلى هذه الآثار في صمت عميق. وفي صمت أبلغ احتفرا السلة من حيث قال السيد. أما آثار القدمين العاريتين فانحدرت نحو الصحراء العريضة الغبيسة الاسرار. هنالك كانا على بُعد بضعة مئات من الأميال عن كل مكان مأهول.

***

أما السيد فهو أحمد محمد حسنين باشا. وأما السيدة فالمؤلفة الجوالة روزيتا فوربس. وأما الرواية فهي كتابها Gypsy of the Sun — في الصفحات ٤٥ و٤٦ و ٤٧ طبعة نيويورك

***

ألا يحق لنا أن نعتقد ان الالهام الروحي قد يرفع الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا فيرى ما لم يكن مرئياً، من غير أن يدرك كيف رآه؟

عرف العرب اميركة

قبل أن يعرفها أبناء العرب[1]

كان العرب منذ أقدم الأزمنة ، وقبل المسيح بكثير ، يختلفون الى جزر واقعة في جنوب غربي بريطانية العظمى ، تلك الجزر التي كان يسميها اليونانيون يومئذٍ (جزر القصدير) ، وبلسانهم Kasseterides ومنه اسم القلعي عندنا أي القصدير المعروف باسم منجمه .

وذهاب أبناء قحطان الى تلك الربوع النائية يدل على أمور جمة :

منها : انهم كانوا يتقنون الملاحة إتقاناً عجيباً ، بدليل ما ذهبوا إليه من البلدان الشاسعة

ومنها : أنهم كانوا يبرعون في بناية السفن ، باحكام عظيم ، لتتمكن من مصارعة أهوال البحار والمحيطات ، ولكي لا تتصدع ولا تنفسخ ، ومن ثمّ لا تغرق .

ومنها : انهم كانوا بارعين في الهندسة ، حتى إنهم تمكنوا من نشر الجواري المتفقات نشراً متساوي الجوانب والأحناء والأجزاء ، حتى لا تزقها اللجج المتلاطمة ولا يزيد فيها جزء على جزء ، فيثقل جانب ويخف آخر ، فيمتنع التوازن والتساوي فتحطب تلك المواخر في اليمّ .

فكان هؤلاء السلف الأبطال ، الأنجاب ، الأنجاد ، يذهبون الى تلك الربوع الأقاصي ، كأن قلوبهم قدّت من جلمود ، وانتزعت أفئدتهم من الأعبل والصوان . فكانوا اذا بلغوا تلك الأصقاع ، يستخرجون منها القصدير أي القلعي الذي نسميه نحن « القلاي » في هذا العهد ، ثم ينقلونه إلى ديارهم العامرة على تلك المواخر ، فيبيعونه بأثمان باهظة ، لأنهم كانوا يتخذون منه ما يقوي الترسة .

هذا وتجارة العرب ، معروفة ومشهورة منذ القدم والأزمنة الرائلة في الماضي ، وبيع إخوة يوسف شقيقهم ابني إسماعيل أشهر من أن يذكر ، وذلك قبل الميلاد بأكثر من ألفي سنة

(١) خطبة القاها الاب انستاس ماري الكرملي في قاعة فيصل الثاني في بغداد في ٦ كانون الاول ١ دسمبر ١٩٤٤

وقد تعلّم بعض الناس من العرب ، استخراج القصدير من تلك الجزر فتأثروهم في صناعتهم وتجارتهم . فكان فيهم الفنيقيون والقرطاجنيون . والرومان ، واليونان ، وغيرهم . ذكر كل ذلك هيرودوتس أبو التاريخ في ٣ : ١١٥ ، واسترابون في الباب ٢ في الفصل ١١

أمّا ما اسم تلك الجزر في عهدنا هذا فيظن الحذاق جميعهم انها المسماة Iles Sorlingues وبالانكليزية Scilly islands وهي واقعة في خليج المانش على ساحل كورنوايل ، Cornwall وهذا دليل على ان صداقتنا للانكليز من أعرق جميع الصداقات

بسيط لديكم الدليل الأول ، نقلاً عن هيرودوتس أبي التاريخ ، المتوفى في المائة الخامسة قبل الميلاد ، وعن استرابون ، المتوفى في الأيام الاخيرة ، من عهد طيباريوس قيصر ، أي في نأنأة النصرانية . والآن أذكر لكم الدليل الثاني ، وهو : يرى المفكرون البصراء من أهل البحث في هذا العصر ، أن أبناء الغروبة ، عرفوا التيار المشهور في هذا العهد بالاسم الانكليزي Gul Stream أي تيار الخليج ، وهو تيار عظيم ينساب في المحيط الاتلانتي ، الذي يسميه ابن خلدون : (المحيط البلابي) وينشأ من خليج المكسيك ، مارًّا بقناة بهاما ، ثم يلاعب سواحل أميركة الجنوبية ، ويسايرها إلى الدرجة ٤٠° من العرض الشمالي ، ثم ينحدر إلى جنوب الجنوب الشرقي .

ويذهب أمير مونا كو البحّار الشهير ، والبحاثة الخطير ، إلى أن سواحل أوروبة ، تتدفق على وجهها بسط من المياه هي غير مياه تيّار الخليج ، اللهمّ إلاّ القليل النزر منها الذي لا يلتفت اليه . هذا وتبقى مجاري هذا التيار دائمة . فتكسر شيئاً من برد إرلندة ، لأن تلك المياه تبلغها ، كما تصل إلى انكلترة ونروج .

وهذا التيار نفسه يفيض على بحار أوروبة ، كما يفيض عليها أيضاً تيارات رَنّل Rennell وخليج غسكونية ، ويستدل على هذا التيار بحرارة مياهه ؛ إذ قد تبلغ ٣٠° درجة مئوية فوق الصفر ، في أول اندفاعها ومن علائمه أيضاً لون مياهه الزرق ، وملوحتها البليغة — وأول من عرف أمور هذا التيار شمشس دي لاون Ponce de Leon في المائة الـ ١٦ ، ثم درسها حاذق الدرس موري Maury في زماننا هذا ، ثم أمير مونا كو البحّار البحاثة الذائع الصيت .

وسبق العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه ، وإلى حركته من المكسيك الى أرلندة ، ومن هذه الى تلك ، فكانوا يركبونه من موضع إلى موطن ، بحيث كانوا يدهشون سكان جزر القاصر ، أي جزر القصدير ، وأهالي جزيرة ارلندة . فكانوا إذا

وفي سنة ٥٥٢ ، نزل برندان ورفقاؤه على سواحل أميركة . ويرى في مخطوط عتيق ، وصف وجيز لما رأوه في تلك الديار . والنهر العظيم الذي يجري فيها ، ويظن إنه المسيسبي .

ولما عاد برندان من رحلته إلى وطنه ، حفظت رواياتها في كتاب لاتيني العبارة ، وكان دوّنها أحد معاصريه ، ونسخ منها عدة نسخ . وأنفذت إلى أرباء أوربة المختلفة ، وكان منها الرسالون الارلنديون . — ويرى منها نسخة في خزانة الفاتيكان إلى يومنا هذا . وقد قال أحد النقات من جهابذة النقدة : إنها كتبت في المائة التاسعة . — وفي الخزانة الوطنية في باريس ، إحدى عشرة نسخة خطية ، تروي رحلة برندان المذكور .

وبعد سفرة برندان ، ترى عدة أدلة على أن رهباناً ارلنديين آخرين ، ركبوا المحيط الاتلانتي بعد ذلك ، وكانوا على سفن ضيقة ، ليقوموا بواجبات الرسلين في العالم الحديث وذلك في المائة الثامنة . وكانت تمتد أعمالهم من ساحل جون شيسابيك في أسفله . إلى أدنى كارولينة وفلوريدة . وقد عرف تلك الارجاء كلها عدد وافر من الارلنديين .

ولا جرم ، أن كلمبس كان واقفاً أتم الوقوف على خبر رحلة برندان ، فتمكن من أن يقنع الملك فرديننند ، والملكة ايزابلّة ، بأن يوافقا على هذه الرحلة . للبحث عن العالم الجديد فقدما في الآخر ، وكل ذلك بفضل ما اطلع عليه من الرحلة المذكورة في تلك المخطوطات النفيسة

الخاتمة

فهذا ، يا سادتي الفضلاء ، مجمل ما يقال في هذا الموضوع ، وأما التفاصيل فطويلة جمة . لا تزيدكم فائدة أعظم . ويلخص كلامي هذا كما يأتي :

إن أبناء يعرب القدامى ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يجاورون ثغور البحار ، يركبون السفن التي كانوا ينشرونها بأيديهم ، فيجوبون بها المحيطات ، فوصلوا في أول أسفارهم إلى جزر القصدير ، وهي في بحر المانش ، وعددها (١٤٥) خريصاً ، وبعد ذلك عرفوا تيار الخليج ، وهو المسمى عند الانكليز Gulf Stream ، فاتخذوه نافلا لهم ، إلى الربوع التي دعيت بعد ذلك بالمكسيك ، ومنها انبثوا إلى سائر مدن أميركة ، من شمالية وجنوبية . فالعرب وسائر الاقوام التي حلت العالم الجديد عرفوا المكسيك ، قبل أن يعرفوا سائر الديار الغربية من تلك الارجاء . ولذا نرى فيها من الأسماء العربية العائدة إلى الحيوان والطير ، أكثر مما في سائر الانحاء الحديثة المعروفة ، بحيث لا يمكن لأحد أن ينكرها .

وقد اعتمدت في كل ما قررت هنا على مصنفات الأغراب أنفسهم ، إلاّ ما وجدته فيها بنفسي . وقع ذلك كله قبل المسيح وبعده ، لاسيما بعد اكتشاف تلك المنتأيات . هذا

وانا أتحدّى كل أديب ينكر عليّ هـذه الحقائق ، أن يفندها تفنيداً علميًّا ، إما على طريق التاريخ ، وإما على سبيل اللغة ، وإما على سبيل النقل عن السلف ، بشرط أن يكون هـذا التفنيد طلباً للحقيقة ، لا للهجكة والمعارضة ، والمباهاة ، والمباهاة والأدعاء الفارغ . وأن يكون بأدلة صادقة مقنعة ، خالية من كل تمويه وتشويه .

نعم ، إن الذين ينكرون هذه الحقائق هم الأجانب الذين لا يعجبهم أن يسمعوا كل مديح بحق العرب ، أو أولئك المتعربون ، أو المتفرنجون ، الشعوبية الذين يغمطون حق كل ناطق بالضاد ، وإن بان فضله وعلمه . فهؤلاء جميعهم من القوم الخاسرين الخاسئين ، ولا يلتفت إلى مزاعمهم ، فالاعتماد على الشباب المنوَّر ، الذين عليهم المستقبل وعسام أن يزدادوا عدداً كلما زدنا تقدماً في الأيام . وعليه تعالى تحقيق الآمال .

مراجعنا

1 — Martyrologium Romanum

2 — M. — N. Bouillet. — Dic. Universel d'His. et de Geog. art. Cassiterides.

3 — Nouveau Larousse illustré, T. II Art. Brendan.

4 — Nelson's Encyclopaedia Vol. IV art. Brendan (St.)

5 — Encyclopaedia Britannica-art. Brendan

6 — G. Wahlund : Die altfrezosische Prosa Übersetzung von Brendans Meerfahrt (Upsala, 1900)

7 — F. Novati : La navigatio Sancti Brendani in Iurico Veneziano. (Bergamo, 1892)

8 — G. Schirmer, — Zur Brendanus—Legende, etc. (Leipzig, 1886)

9 — F. Michel : Les Voyages Merveilleux de St. Brendan, etc. (Paris 1872)

(10) — R. F. Moran : Acta Sancti Brendani, Original Latin Documents connected with the Life of Saint Brendan (Dublin 1872)

11 — Time Bits No. 3192 Friday, 7th. April 1944.

12 — Pierre Larousse — Grand Dictionnaire Universel du XIX Siecle — Paris

١٣ — القنطف ١٠٥ : ٣١٧ وما يليها

١٤ — مجلة المجمع العلمي العربي — ١٩ : ٣١٥ وما يليها الى غيرها من الكتب والمجلات والصحف

وحدة الوجود

أمذهب أم فكرة ؟

« ان وحدة الوجود ليست إلا نزعة او اتجاهاً عقلياً بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به الى مشكلة أكبر »

كثر التحدث في العهد الأخير في وحدة الوجود ، وتقدم للكلام في هذا الموضوع طائفة من جلة أدبائنا ، فتفرقوا فيه شيعاً ، ومضوا في بحثه أحزاباً وفرقاً ، على أن كل ذلك انما يدل دلالة واضحة على أننا في صحوة من الفكر ، ويقظة في متابعة الدرس ، نحمد للذين أقاموا الدليل عليها ببحوثهم ، أنهم كانوا تراجمة أمناء على البحث والتقصي .

ولا شك عندي في أن هذه الظاهرة لها دلالة أخرى لاتقل عن يقظة الفكر شأناً ومكانة . تلك ناحية أن الفكر المصري قد أخذ يتعمق في الفلسفة ، وانه ألف أن يظل بعيداً عن القاصي إلى آفاق الفكر البعيدة .

غير أن تلك البحوث التي مضى فيها هؤلاء الأساتذة الأجلاء قد تقصتها ناحية ذات بال من نواحي التأمل . فقد مضى بعضهم في البحث على أن وحدة الوجود مذهب ، فقال في بحوثه ان مذهب وحدة الوجود كذا ، وان مذهب وحدة الوجود كيت ، من غير أن يقيم الدليل على أنه مذهب صحيح له شعابه المترامية وحفاراته النفسية وله حقائقه وغيبياته ، شأن جميع المذاهب الكبرى في الفلسفة . فليس لوحدة الوجود من الأصول والفروع مثلاً ما لمذهب المادية أو الروحانية أو مذهب الكلام عند النصارى وعند المسلمين ، أو مذهب الألوهية عند المتألهين ، أو مذهب الشكية عند اصحاب الشك ، أو مذهب اللاأدرية عند اللاأدريين أو مذهب اللادينية عند من ينبتون الله وينفون الأديان ، أو مذهب الجبرية أو القدرية أو المشبهة أو المعطلة . فجماع هذه مذاهب تقوم على فكرة هي الأساس ، تتشعب من حولها فروع وشعب من الفكر لا نهاية لها . فهل في القول بوحدة الوجود شيء من ذلك ؟ لم يتكلم أحد من الباحثين في هذا . وكان من الواجب أن يقوم البحث بداءة ذي بدء على أساس ثابت يكون بمثابة البورة تتبعث منها أشعة تتراءى في شعاب الفكر .

إن كلمة Pantheism — من حيث التخريج اللغوي معناها القول بأن الكل هو الله

أو أنَّ الله هو الكل . ولما كان الفكر قد يتراوح بين القول بأن الكل لله أو أن الله للكل ، فقد حتم أن يكون لهذا القول وجهان :

فاذا بدأت من حيث انتهى المعتقد الديني أو الايمان الفلسفي بالله وانه حقيقة لانهائية سرمدية ، إذن فالعالم النهائي الموقوت يندمج في الله ، وهنا تلبس وحدة الوجود ثوب اللاكونية — Acosmism — أي ان المادة ليست غير خيال إلى جانب الله الذي هو الحقيقة الثابتة . أما إذا بدأت من حيث انتهى المعتقد العلمي أو الصورة الشعرية للمادة باعتبارها وحدة ، فان الله يندمج في المادة وتلبس وحدة الوجود ثوب « الوحدة الكونية » — Pancosmism . والأولى نظرة إلهية ، والثانية نظرة معطلة (تنكر وجود الله) .

والتفسير المنطقي البسيط لتينك النزعتين هو أنك إذا قلت بأن « الكل لله » أثبت وجود الله وان لا شيء خارج عنه ، وعطلت وجود المادة . وإذا قلت بأن « الله للكل » أثبت وجود المادة وان لا شيء خارج عنها ، وعطلت وجود الله . هذا على أن لا نغفل أبداً عن أن لكل من الوجهتين معضلات عقلية محضة لا تنتهي من إحداها إلاّ لتقع في أعضل منها . وعلى هذه الوتيرة ظل الفكر الانساني ازاء هذه القولة منذ أقدم العصور حتى الآن ولم يخط خطوة واحدة الى الأمام .

وعندي أن القول بوحدة الوجود ليس مذهباً فلسفيًّا ولا هو فكرة ترتد إلى أساس أولي في العقل . ومعنى انها ليست مذهباً أنها تدور وتتركز حول شيء واحد هو القول بأن الله والمادة واحد لا يتجزأ من غير أن يرسل هذا القول ضوءاً على أية ناحية أخرى من نواحي المعرفة . فلا شعاب له ولا فكرات ولا تعمق في استبطان حقائق الوجود . ومعنى إنه ليس فكرة أنه لا منطق له يقوم عليه . فما هو مثلاً منطق القول بوحدة الوجود إذا نحن أردنا أن نحدد منطقها ؟ أما الحقيقة التي أومن بها ، فهي إن وحدة الوجود ليست إلاّ نزعة أو اتجاهاً عقليًّا بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به إلى مشكلة أكبر . بل لقد كان لذلك المنحى العقلي آثار أخلاقية تحملك القلم عنها لأنها إلى الرذيلة وتكران الفضائل كافة . كذلك كان لها سقطات فكرية يترفع عنها عقل سلم من معضلات القول بوحدة الوجود . وما قولك فيمن يقول « ما في الجُبَّة إلاّ الله » . سبحانه وتعالى

قد يطلب الينا تبيان ذلك الشكل الذي حدا بالعقل إلى أن ينزع هذه النزعة وينحو ذلك المنحى . وليس ذلك بمتعذر على من أدرك طرفاً من فلسفة القدماء . فالواقع الثابت أن وحدة الوجود لم تقم في العقل البشري إلاّ نتيجة البحث في الله والقدم . فزاد القول بها مشكلة الله والقدم فضعضاه على منطق العقل المعرف .

ما هي علاقة الله بذلك الاتجاه العقلي ؟

في الفلسفة مبحث يقال له السببية — Causality — مؤداه أن كل مسبب لا بد له من سبب ، وإن كل معلول لا بد له من علة ، والسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب ، وكذلك المعلول فانه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة . فاذا زال السبب أو العلة زال المسبب وزال المعلول . هذا منطق بسيط جداً يخاطب عقل البسطاء ، كما يخاطب عقل النبغاء من أهل التأمل . وكفى أنه منطق العربي البسيط الذي يقول : الأثر يدل على المسير .

والعلة في منطق الفلسفة الاستنتاجية أنواع ، لا مجال للخوض فيها هنا . وإنما نقول إن مجمل القول فيها أن العلة إذا كانت ناقصة تخلف عنها معلولها ، فاذا تمت فلا بد إذن من وجود المعلول . مثلاً : إذا وجد الخشب والأدوات والنجار ، فهل يكفي ذلك لوجود الكرسي . كلا ، ذلك إن هذه الأشياء تكون علة ناقصة . فاذا أضيف إلى ذلك الارادة ، كملت العلة ، وإذن يقوم المعلول ، وهو الكرسي .

والله لا شك علة العلل ، فلا مناص من القول بانه علة كاملة ، لا يتخلف عنها معلولها بصورة من الصور . ولا شك أيضاً في أنه قديم . لأن الحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات ، لا من صفات العلل الغائية .

إذا انتهينا من ذلك وجب أن نعتقد ان لله معلولاً أعظم لا يتخلف عنه ولا يشاركه في صفاته التي من اخصها القدم . فهل المادة التي هي المعلول الأعظم للعلة الغائية ، قديمة أم حادثة ؟ فاذا قيل بأنها حادثة تساءلنا كيف حدثت ؟ وهل يمكن خلق شيء من لا شيء ؟ أو محو شيء الى لا شيء ؟

فاذا قيل بقدم المادة ، شاركت المادة الله في قدمه . وإذا قيل بحدوثها ، كانت الطامة على العقل أعظم وأكبر . فانها اذا كانت حادثة دلّ ذلك منطقاً على ان الله كان علة ناقصة فلما كملت حدث المعلول . وذلك ما لا يقول به أحد من أصحاب الألوهية على اطلاق القول .

هنا نزح العقل الى وحدة الوجود ، لا لشيء ، إلاّ ليتخلص من مشكلة العلة والمعلول والقدم والحدوث ، فقال إن الله والعالم ، وبالأحرى أن الله والمادة ، وحدة لا تنفصم . هذا ليخلص من تضارب المنطق عند البحث في الله والقدم .

غير ان ذلك أدّى إلى مشاكل أعظم . فأنت وأنا والجماد والسوائل وما يعقل وما لا يعقل أجزاء في تلك الوحدة ! هنا تنتفي كل القيم التي قدّسها العقل وساق اليها التأمل في الألوهية . تلك هي نزعة العقل إلى وحدة الوجود . نزعة أراد العقل بها التخلص من مشكلة كبرى ، فوقع في مشكلة أكبر .

كل مرحاً

تعش طويلاً

التخمة والبطن على السواء في اشد الحاجة الى مزج طعامهم بالفواكه وعصير الخضر ولا تستمد هذه المواد على الهضم وحسب، بل زهف الجهاز العصبي برمته ، وتزود الدم بحاجته من الفيتامين.

لا تزدحم بالطعام. فإن هضم الاغذية عمل طويل تقوم به أعضاء مختلفة : المعدة والكبد والبنكرياس . فاذا أرهقتها بالعمل احتجت . وسوء الهضم هي طريقة الاحتجاج .

كل بتؤدة . وهذا من أهم الأشياء . فإن ازدراد الطعام بغير مضغ جيد من أخطر الأشياء . فالأغذية النشوية كالخبز جيداً ينبغي أن تهضم في الفم . فخميرة اللعابين التي تكون في اللعاب هي التي تغير النشويات الى سكريات يتمتع بها الجسم . فاذا لم يختلط طعامك اختلاطاً كلياً بهذه الخميرة الهضمة يتبقى كثير منه بغير هضم فيه . وبغير مضغك الخارجي فكأنك مريض وفي الواقع انك متقل بغذاء غير مهضوم .

اترك المائدة وانت ما زلت جائع اذا جلست الى مائدتك . فلا شك في أن الهضم يتعطل تماماً اذا كانت الأعصاب الانفعالية في الانسان مضطربة ثائرة . ذلك بأن النواحي الطبيعية والإنسانية والعقلية في الانسان متصلة اتصالاً وثيقاً في التكوين البشري وكل منها تؤثر في صاحبتها تأثيراً قوياً . فاذا كنت في ثورة من الغضب أو موجة من الحزن فمن المستحسن أن تتخطى وجبة من أكلك . فإن الطعام الذي تأكله وأنت في تلك الحال لا يفيدك أية فائدة وقد يحدث بك ضرراً بالغاً .

استرح بعد الوجبة . وان هذا من أهم الشروط الصحية لمن هم في عمل مستمر . ذلك اذا بدأت تعمل بعد الأكل مباشرة تجذب الدم من ناحية المعدة الى الدماغ والبدين . وبهذا يبقى الهضم في فراغة نصف ساعة على الأقل بعد الأكل من أوجب الواجبات . ولا شك في انك تعوض هذا الوقت نشاطاً وعقرية واتساعاً عندما تبدأ عملك .

ان الذين هم عرضة لسوء الهضم يكونون في العادة أقل مما ينبغي وزناً . فمن الحقائق الثابتة أن النحفاء أكثر وقوعاً في سوء الهضم من الخواتيم المتوردي الخدود المتناسبي الأجسام . وذلك بسبب حيوية فإن قناة الهضم في النحفاء أقصر منها في السمين . وهذا بسبب سرعة مرور الطعام فيبقى جزء منه غير مهضوم وغير ممثل . والطعام غير المهضوم عرضة للتخمر .

ومما يفيد أولئك الذين يقل وزنهم عن المقدار الضروري أن يكثروا على أكل الخضر مطبوخة ومعاجلة بدهن نباتي . وذلك ليتمكن مرور الطعام في القناة الهضمية فتتمكن العصارات الهضمية من ان تؤثر فيها المطلوب في اتمام عملية الهضم .

وهنالك أمر آخر يرد النحفاء المتأخرين سوء الهضم . فان خمس أو ست وجبات صغيرة أخف بهم وأفيد لهم من ثلاث وجبات عظام . فان كثرة الوجبات وقلة كميتها تخفف وطأة العبء على المعدة واجهاز الهضمي عامة ولا ترهقه دفعة واحدة . ومن المرغوب فيه أن يقسموا أطعامهم بجعلها أقساماً وأجزاء . ولكن ليذكر هؤلاء ان التقسيم يكون بكثرة الوجبات وقلة كميتها أي تكون وجبات لا أكلات صغيرة بين أكلات كبيرة.

والنحفاء والسمين على السواء في أشد الاحتياج الى مزج طعامهم بالفواكه وعصير الخضر . ولا تستمد هذه المواد على الهضم وحسب بل زهف الجهاز العصبي أجمعه وتزود الدم بحاجته من الفيتامينات.

واليك سراً آخر . هذا اذا كنت في أشد حاجتك الهضمي فتجنب الاطراف المهضمة ويكربوناتها السودا . فإن البيض من الأطعمة الطيبة . هو نجم منها في تفاقي احر المعدي وحموضة الاحشاء . إلزم من عصير الكرنب وجزء من الجزر فقط من وجبات غير مزيج لازالة متاعبك . خذ جزءاً من هذا المزيج قبل تناول الطعام أو في أي وقت تشعر بحاجة اليه .

تاريخ يومك

ماهو ؟

التقويم العالمي يكفيك إلى نهاية الدهر

في التقويم العالمي كما وضعته جمعية التقويم العالمية في نيويورك ، قسمت السنة الشمسية من ١٢ شهراً أرباع متساوية كل ربع منها ثلاثة أشهر أو ١٣ أسبوعاً أيا كان ٩١ يوماً ، على قاعدة أن أيام الأشهر هي ٣١ ـ ٣٠ ـ ٣٠ وهذا في كل منها ٢٦ يوماً أسبوعياً خلا أيام الآحاد . وكل الوحدات الزمنية تنتهي في نهاية كل ربع سنة . والشهور الأول من الأرباع تبدأ كلها بيوم الأحد وتنتهي يوم الثلاثاء ، والشهور الثواني من الأرباع تبدأ بيوم الأربعاء وتنتهي يوم الخميس ، والشهور الثوالث تبدأ كلها بيوم الجمعة وتنتهي يوم السبت .

في سنة ٤٧ ق . م . عمل يوليوس قيصر بمشورة « سوسيجانس » — Sosigenes — الفلكي الإسكندري ، وأصلح التقويم الروماني بأن أخرج من حساب التقويم دورة القمر ووضعها على أساس دورة الشمس . وبدأ التقويم اليولياني من أول يناير سنة ٤٥ ق.م ، وظل متبعاً حتى سنة ١٥٨٢ بعد الميلاد عندما أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر بإعادة النظر فيه . والتقويم الجديد ، الذي عرف فيما بعد بالتقويم الغريغوري ، قد اعترف به سنة ١٥٨٢ في كل من إيطاليا واسبانيا وبولاندا والبرتغال وفرنسا . أما دخوله في سويسرا فكان تدريجاً . وبدىء به في سنة ١٥٨٢ وأكمل سنة ١٨١٦ ، فاعترفت به أكثر الدول الجرمانية التابعة للمذهب الروماني الكاثوليكي ، والفلاندر والأراضي المنخفضة سنة ١٥٨٣ ، وقبلته هنغاريا سنة ١٥٨٧ ، والمقاطعات البروتستانتية سنة ١٧٠٠ . وصدق البرلمان البريطاني على التقويم الغريغوري سنة ١٧٥١ ، وطبق على الإمبراطورية البريطانية بأمر ملكي سنة ١٧٥٢ ، وأخذت به السويد سنة ١٧٥٣ ، وأوجبه نابليون في فرنسا سنة ١٨٠٦ مستبدلاً به تقويم الثورة الفرنسية ، واستعملته اليابان سنة ١٨٧٣ والصين الجمهورية سنة ١٩١٢ ، وبلغاريا سنة ١٩١٦ وروسيا السوفيتية سنة ١٩١٨ ، ورومانيا واليونان سنة ١٩٢٤ ، وتركيا سنة ١٩٢٧ .

ومع هذا فان التقويم الغريغوري لم يعم استعماله . ففي العالم تقاويم كثيرة تخالف التقويمين اليولياني والغريغوري ، منها التقويم الصيني وهو تقويم قمري شمسي ويجري عليه بطريق مباشر أو غير مباشر ٤٥٠ مليوناً من الآنفس في آسيا . ومنها التقويم الاسلامي ويجري عليه ٢٧٥ مليوناً في آسيا وإفريقية ، هذا بخلاف ١٧ تقويماً متفرقة يجري عليها ٣٢٠ مليوناً في الهند . والتقويم الهجري لا يزال معترفاً به في تركيا وفارس وبلاد العرب ومصر وأجزاء من الهند . ويبدأ من أول يوم في الشهر الذي وقعت فيه الهجرة المحمدية من مكة الى المدينة . وكان هذا اليوم على التحقيق يوم ١٦ من يولية سنة ٦٢٢ ميلادية وأشهرها قمرية تبدأ بشروق القمر أول كل شهر ، والتقويم الهجري ليس فيه اضافات تجعله جارياً على حسب تغيير الفصول بدورة الشمس ، فسنواته تتراوح بين الفصول في خلال ٣٢½ سنة .

***

وتجري الهند الآن على ١٤ تقويماً رئيسيًّا بالاضافة الى التقاويم الغريغوري والهجري والعبري . وفيها تقاويم متفرقة تتبع في مقاطعات مختلفة من المملكة . فالآسامي والبنغالي والبرمي والكوجراتي (بمقاطعة بومباي) والهندو والكفارسي (في ميسور بغربي الهند وأجزاء من مدراس) وسوراشترا (جنوبي بومباي وبونا وغيرها) والملايالي (في ملابار) والسَّرْواري (في أقاليم مَروار ويستعمله التجار في جميع أنحاء الهند) والاورايي (في أووريسا وجزء من مدراس والجزء الأعظم من بهار) والبارسي والبنجابي والطميل (في جنوبي الهند وسيلان) والتلوجو (في شمالي مدراس) .

ولتضارب هذه التقاويم أثر ظاهر في أنحاء المملكة الهندية . ويقول موظفو حكومة الهند إن استعمالها جملة يحدث مشاكل كبيرة فضلاً عن انها تكلف الخزينة أموالاً تنفق في غير حاجة الى انفاقها . ومنذ زمن بعيد اعتادت الحكومة أن تطبع أربعة تقاويم منها هي : البنغالي والهندوكي والملايالي والطميل ، في هيئة مجموعة للمراجعة وتتضمن أيضاً التقويمين الغريغوري والهجري . ولا تقل صفحات هذه المجموعة عن ٣٥٠٠ صفحة ولا بد من أن تتضمن عبور الشمس والقمر وبعض الأجرام السماوية الأخرى بخط الزوال كل يوم على مدى سنين متعاقبة . وجمع هذه المتفرقات يحتاج ثلاثة أشهر ، وغالباً ما تحتاج إلى زمن أطول كثيراً . فاذا علمت أن هذه المجموعة تتضمن تغير الفصول بحسب التقاويم المختلفة والأعياد والاجازات الرسمية وكل التواريخ الهامة ، علمت ما يصرف في سبيلها من الجهد العظيم

وكثيراً ما أشارت الصحف البريطانية إلى ما في التقاويم الهندية من التعقيدات التي لا تبارى . قالت جريدة الشمس ذات مرة :

« يحدث في خلال ثلاثين سنة أن يأتي عامان أو ثلاثة أعوام متوالية يكون فيها عند المسلمين أيام حداد تعينها دورة التقويم القمري المتغايرة، فتتفق وأياماً تكون عند الهندوكيين أيام أعياد محددة بمقتضى التقويم الشمسي » .

***

ولقد قال « غاندي » ما يأتي :

« لا شك في أنه بين المرغوب فيه أن يكون لأمتنا التي تبلغ ٣٥٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة تقويم وطني واحد . ولما كانت كل التقاويم الهندية موضوعة على أساس الاثني عشر شهراً، فمن السهل أن تلتقي كل التقاويم على هذه القاعدة . وإني أحبذ الأخذ بمثل هذا التقويم . وإني فوق ذلك أكثر ميلاً إلى تقويم طلي عام ، كما اني أدعو إلى عملة واحدة تتخذ قاعدة للتعامل في كل ممالك الأرض ، وكذلك لغة واحدة لكل الشعوب » .

ان سكان الصين ، وقد بلغوا منذ زمن نيفاً وخمسمائة مليون نسمة — أي ربع تعداد الأنفس التي تسكن كرة الأرض — قد استعملوا منذ أزمان غابرة تقويمين : التقويم القمري القديم ، وإلى جانبه تقويم شمسي يتبع الاشهر الفلكية بدقة تامة . ولقد ألغي التقويم القمري مع قيام الجمهورية، وحل مكانه التقويم الغريغوري . ولقد عملت الحكومة الوطنية تحت قيادة الزعيم « شنج كاي شك » على العمل بالتقويم الغريغوري . فصدرت المراسيم التي تحظر طبع التقويم الصيني القديم ونشره أو بيعه ، كما أن الحكومات المتعاقبة من سنة ١٩١١ قد عمدت إلى عدم الاعتراف بالعقود والمستندات التي تؤرخ بحسب الطريقة القديمة .

***

يقدر عدد سكان الدنيا بحوالي ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ويقدر عدد اليهود من كل المذاهب بحوالي ١٥,٠٠٠,٠٠٠ إلى ١٦,٠٠٠,٠٠٠ . والتقويم العبري الذي يستعمل الآن تقويم شمسي قمري ، فسنواته شمسية ، وشهوره قمرية . والتوفيق بين الدورتين الشمسية والقمرية يكبس شهر برمته في السنة الثالثة والسادسة والثامنة والحادية عشرة والرابعة عشرة والسادسة عشرة والتاسعة عشرة في دورة عدتها تسعة عشر عاماً . ولأسباب عملية [illegible]

ابتداء السبت عندهم ويبدأ بغروب الشمس ، يحصل خلاف ، اذا لاحظنا أن اليوم التقويمي في أربعة وعشرين سنة يبدأ دائماً في الساعة السادسة مساء ويختلف الشهر العبري من ٢٩ الى ٣٠ يوماً ، وبذا يختلف عدد الايام في السنة الواحدة فيكون المجموع عبارة عن ٢٩ يوماً و ١٢ ساعة ، و٤٤ دقيقة و ٣ ثانية مضروباً في ١٢ إذا كانت السنة بسيطة ، وفي ١٣ إذا كانت السنة كبيسة .

***

والتقويم الرسمي في يوغوسلافيا هو التقويم الغريغوري ، فهو المستعمل في كل العلاقات الرسمية ولا يستعمل موظفو الحكومة تقويماً غيره . ولكنهم في حياتهم الخاصة يتبعون التقويم اليوليانى في تعيين الأيام والمعاملات . وعلى هذا جرى أكثر اليوغوسلاف إلى ما قبيل الحرب . وأكثر المسلمين في تلك البلاد ، ولو انهم « سُلاف » بالأصل ، يجرون على التقويم القمري الهجري . في حين ان اليهود ، يجرون على تقويمهم العبري .

ومن الظاهر ، بناءً على كل الخلافات القائمة بين التقاويم الحالية ، يحتاج العالم إلى تقويم عالمي عام . وقد يذهب الأكثرون إلى تحبيذ الأخذ بالتقويم الغريغوري ، ولكن الأفضل أن يدخل على هذا التقويم إصلاح ما لما شعر الناس بالحاجة اليه .

ذلك بأن التقويم الغريغوري بعيد عن الكمال كما أبان عن ذلك الدكتور في « صحيفه لصلاح التقويم » : قال —

« يتسامح كل منا في الجري على تقويم يختلف كل شهر وكل سنة . تقويم غير منظم فيه شهران عدة كل منهما ٣١ يوماً ، هما يولية وأغسطس . وفيه شهران اثنان ، هما فبراير ومارس يبدآن دائماً يوم معين في الأسبوع ، غير انهما ينتهيان في يومين مختلفين . وبذا نجد أنفسنا في حاجة دائماً إلى الرجوع إلى تقاويم سنين ماضية لنعرف كم يختلف تاريخ اليوم (الجمعة مثلاً) من الخميس في السنة الماضية . وهذا ما لا ينبغي أن يحدث قطعاً ، فيجب أن تكون تواريخ الأيام واحدة في كل السنين ، إذا استعملنا شيئاً من الحذق في وضع تقويم جديد » .

أن كل رجال الأعمال والاخصائيين ، ورجال العلم والتربية والمهندسين والمشترعين ، يعترفون بأن هنالك فوضى تحدث باستعمال التقويم الحالي ، وذلك لاختلاف توزيع الأيام باختلاف السنين . فكيف نخلص من هذه المعضلة ؟ انظر أولاً في الجدول الآتي ثم اطلع على التفصيل .

يناير

أ	ا	ث	ر	خ	ج	س
						٧
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١				

فبراير

أ	ا	ث	ر	خ	ج	س
						٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠		

مارس

أ	ا	ث	ر	خ	ج	س
						٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

ابريل

ا	اث	ث	ار	خ	ج	س
						٧
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١				

مايو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠		

يونيو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						١
٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢
٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩
٣٠						

(٣١ سبت زائد عيد عالمي كل ٤ سنوات)

يوليو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						٧
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١				

اغسطس

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠		

سبتمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						١
٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢
٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩
٣٠						

اكتوبر

ا	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						٧
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١				

نوفمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠		

ديسمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
						٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

(٣١ سبت زائد عيد عالمي كل سنة)

في التقويم التالي ، كما وضعت جمعية التقويم الدائم في نيويورك ، قسمت السنة الشمسية من ١٢ شهراً ارباعاً متساوية كل ربع منها ثلاثة أشهر أو ١٣ أسبوعاً أيلها ٩١ يوماً . وقسمت أيام الشهر على قاعدة ٣١ — ٣٠ — ٣٠ يوماً ، وفي كل شهر منها ٢٦ يوماً أسبوعياً زائداً أيام الاعياد . وبهذا الوجه تكون الزمنية تنتهي في نهاية كل ربع سنة

ويوم ٣١ ديسمبر في التقويم القديم هو سبت زائد ، وتبدأ السنة الميلادية يوم الاحد اول يناير . ويوم ٢٩ فبراير في السنين الكبيسة في التقويم القديم يصبح يوم سبت زائداً ايضا فيؤجل حتى شهر يونيه ، وكل من السبتين الزائدين يعتبر عيداً عالمياً .

هذا تقويم جديد يضارع من حيث الضبط والدقة ساعتك التي تعين ثوانيك ، وهو التقويم الحديث الذي قسمت فيه السنة اثني عشر شهراً ، وزعت على أرباع متساوية ؛ وهو المعروف بالتقويم العالمي . فكل سنة تبدأ بيوم أحد ، وكذلك كل ربع سنة . والشهر الأول من كل من هذه الأرباع عدته ٣١ يوماً وشهران عدتهما ٣٠ يوماً . وفي كل شهر ٢٦ يوماً اسبوعيًّا زائداً عليها أيام الآحاد . فتجد ان السنة قد قسمت إلى أربعة أرباع متساوية الزمن أي ٩١ يوماً أو ١٣ اسبوعاً أو ثلاثة أشهر . وواضح من ذلك ان أيام السنة تبلغ ٣٦٤ يوماً فاذا أضفنا اليها يوم سبت زائداً في نهاية ديسمبر من كل سنة ليكون عيداً عالميًّا ، كملت السنة ٣٦٥ يوماً وأصبحت ثابتة . ويتبع نفس هذا النظام في السنين الكبيسة حيث يقع اليوم الزائد في وسط السنة أي في يوم زائد بعد يوم ٣٠ يونية ، عدا اليوم الزائد سنويًّا بعد ٣٠ ديسمبر .

فاذا عمل بهذا التقويم أصبح التأريخ مضبوطاً مضبط ساعتك التي تعيش بها يومك . فاذا وقع ميلادك يوم أربعاء من أية سنة ، فانه يتكرر في ذلك اليوم دائماً ، وبه يسجل اليوم والسنة على الاستمرار .

مأثورات

« ان من عرف فضل قوته على الضعفاء ، فاغتر بذلك في شأن الأقوياء ، قياساً لهم على الضعفاء ، كانت قوته وبالاً عليه »

***

« إن طالب الحق هو الذي يفلح ، وان قضى عليه ، وطالب الباطل محروم ، وإن قضى له . وليس لصاحب الدنيا في دنياه شيء ، لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه ، فقد العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غداً ، وأقل يحقت بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا . فان بمنزلة المال عند العاقل بمنزلة القدر ، وبمنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره من الشر ، بمنزلة نفسه »

***

« ويعلم فاعلم أن الفأس يقطع الشجر ، فيعود ينبت ، والسيف يقطع به اللحم ، ثم يعود فينبت . والسان لا يقدر جرحه ولا تؤتى مقاتله . والنصل من السهم يثبت في اللحم ، ثم ينزع فيخرج . والشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج . ولكل حريق مطفئ ، النار الماء . والسم الدواء ، والحزن الصبر ، وداء الحقد لا تجبر بعده »

***

والعاقل وإن قدر واثقاً بقوته وعدته ، لا ينبغي أن يحمله ذلك على أن يجعل المداولة على نفسه اتكالا على ما عنده من الرأي والقوة ، كما أنه وإن كان عنده الترياق لا ينبغي له ان يشرب السم اتكالا على ما عنده . وصاحب حسن العمل ، وان قصر به القول في مستقبل الامور ، كان فعله بينا واضحا في العاقبة والاختبار . وصاحب حسن القول ، وان عجب الناس منه حسن صفته للامور ، لا تحمد عاقبة مره .

ابن المقفع : عن بيدبا الفيلسوف

صحيات

حذار

من أمراض البرد

« امراض البرد هي الطاعون الجديد ، تعطل الناس عن العمل ملايين الساعات ومضاعفاتها أكثر وأعظم أثراً من اي مرض آخر » .

قال بعضهم : « إذا أردت أن تتقي البرد فامضغ قليلاً من الثوم ، وبذلك يتقيك المصابون به فلا تنقل اليك العدوى » . والبرد من الأمراض المستعصية على العلاج ، فمنذ خمسة آلاف سنة لم يعثر على علاج شاف له . فهو مرض يأتي ويذهب على غير ارادتك . وفي الوقت الذي بني فيه الهرم الأكبر كانت أمراض البرد تعالج بنفس ما نعالج به الآن . ونحن لا نعرف الجراثيم التي تسبب هذه الأمراض ، ولكنا لا نشك في انها معدية .

وتختلف اصابات البرد سنة عن سنة ، بل فصلاً عن فصل . لهذا شك الأطباء أن يكون نوعاً بعينه من المترشحات (Viruses) هي السبب في احداثها . ويعتقد دكتور « رسيوس بوش » انها انما تحدث باجتماع عدة أنواع أو ضروب من الجراثيم ، واستنتج من ذلك أن هذا الوباء قد يسبب لبعض المصابين به سعالاً دائماً في بعض الأحيان ، وقد يسبب رشحاً أنفياً أحياناً أخرى ، او التهاباً في الزور ، وكل مجموعة من هذه الجراثيم لا بدّ من أن تنتقل من شخص لآخر ، فتغزو هذه المجموعة نفس المكان الذي أصيب به حامل المرض ، وتنتج أعراضاً مشابهة للاعراض التي تكون فيه .

كيف تبدأ اصابات البرد ؟

كيف نستطيع ان نمثل انتشار هذا الوباء ؟ وأين تحدث أول اصابة فينتشر منها المرض؟ والجواب على هذا السؤال ليس صعباً كما يتبادر اليك لأول وهلة . فكل الجراثيم التي تسبب اصابات البرد موجودة فعلاً في منطقة الزور في كل انسان صحيح الجسم . والعلة ان كل انسان يحمل قليلاً من ضروبها المختلفة وبين الناس من الاختلاف والتباين ما يحملنا على الاعتقاد بأن الصورة التي تلابس المرض انما ترجع الى استعداد أول من يصاب به . وقد تسأل كيف يستحدث البرد في أول من يقع فريسة له .

فجراثيم أمراض البرد ، كمثل صنوف الجراثيم الأخرى كالسبحيات Streptococci والعنقوديات Staphylococci التي تحدث الصديد ، تنتعش وتتكاثر إذا حبس عنها الهواء ولم يتصل بها . والحقيقة أن تلك الظاهرة هي من خصائص عدد كبير من الجراثيم المعدية . فالكزاز (التتانوس) وعصيات القولون Colon bacilli وكثير غيرها ، هي من هذا الطابع . فاذا اتصلت بالهواء ، فان ضررها يصبح قليلاً نسبيًا ، فاذا حبست عن الهواء ولم تتصل به ، تحدث الالتهابات بسرعة ، وتبدأ هذه الجراثيم في التكاثر بنسبة لا تصدق .

وقد يتفق لأول من يصاب بالبرد أن يجلس في تيار هوائي وجسمه دافىء ، فيسبب هذا تبريداً سريعاً في أنسجة العضلات فتنقبض وتسبب ضغطاً على بعض الأعصاب الرئيسية ، وبخاصة أجزاء الأعصاب عند تفرعها من النخاع . فتيار هوائي يصيب الرقبة قد يحدث تأثيراً في الأعصاب المنظمة للدورة في الرأس والزور ، فينتج عن ذلك ورم في الغشاء المخاطي الحاف بتلك الأجزاء . وهذا الورم والتضخم قد يظهر في صورة التهاب في الزور أو جفاف في الأنف . ولكن أهم ظاهرة في كل ذلك هو أن الأنف تسد فلا يتخلل الهواء كل أجزائها في تلك الأجزاء التي لا يصل اليها الهواء تأخذ الجراثيم في التكاثر بسرعة عجيبة . ويزداد الاحتقان في تلك الأجزاء وتأخذ خلايا المخاطية في افراز كمية كبيرة من المخاط محاولة بذلك الافراز كنس الجراثيم التي تغزوها إلى خارج الأنف . وبذلك تبدأ الاصابة بالبرد وتأخذ العدوى طريقها المألوف . وقد تحدث الاصابة من أسباب أخرى غير التعرض للتيار الهوائي ، فالامعان في الأكل والشرب أو التعب قد يهيىء طروقاً للاصابة . والنتيجة مع جميع هذه الأسباب واحدة : كتم مجاري الأنف وامتناع الهواء عن الوصول اليها . هنالك تحدث الاصابة .

اصابات البرد لا تعدي دائماً

هنالك حقيقة فذة نعرفها عن تلك الجراثيم التي تسبب اصابات البرد ، هي إنه بالرغم من أننا جميعاً نحملها فان اختلاطنا بأناس آخرين لا ينقل الينا العدوى ، ما لم يكن الاختلاط بشخص أو أشخاص نشطت فيهم تلك الجراثيم فأحدثت فيهم أعراض البرد . فقد ذكر دكتور «لوسيوس بوش» إنه رأى رجلاً مصاباً بزكام مزمن وزوجه غير مصابة به ، ورأى امرأة مصابة بالتهاب الجيوب المزمن وزوجها غير مصاب به . وهذا يدل على ان الجراثيم لا تصبح خطرة إلا إذا نشطت بصورة حادة . فالاصابات المزمنة غير معدية إلى حدّ ملحوظ . وحتى الجراثيم المنقولة عن شخص مصاب حديثاً ، قد تقاوم عند ما تنتقل منه إلى شخص آخر ، إذا ما ظلت فجوات الأنف مفتوحة بحيث تسمح للهواء بتخللها فيظل الغشاء المخاطي صحيحاً محتفظاً بقوة المقاومة .

الهواء النقي أسلم من العقاقير

الهواء النقي هو عقّار « السُّلفا » الطبيعي ، بيد ان استعماله أسلم عاقبة . وقد يصف الأطباء عقار « السُّلفا » لكثير من المصابين بهذه الأمراض . وقد وجد ان هذا العقار لا يقتل تلك الجراثيم بالفعل ، ولكنه يعمل فقط على وقف نماثها وتكاثرها . ويحدث هذا الأثر نفسه من تعرض هذه الجراثيم للهواء . وهنا نجد أن الطبيعة قد سبقت الكشف العلمي آلافاً مؤلفة من السنين . وكما ان كريات الدم البيض تستطيع قتل الجراثيم بطريقة أسلم من كل عقار مطهّر ، كذلك الهواء يستطيع أن يقف تكاثرها ونماءها ، من غير أن يخلف نتائج سيئة ، كتلك التي يتفق أن يخلّفها تعاطي عقار « السُّلفا » .

ومنذ أن قال العلماء بنظرية الجراثيم وتنقلها الأمراض ، حاول الباحثون أن يصلوا إلى طريقة للوقاية من الاصابة بالأمراض ، فعمدوا إلى الحقن ليزيدوا به مقاومة الجسم . ولاشك أن الأطباء قد يقبلون هذه الطريقة مستدلين على كفايتها بأمراض لا تصيب الانسان ثانية إذا أصابته مرة سابقة كالحصبة والحمى القرمزية . ولكن أمراض البرد من طابع غير هذا الطابع . فإصابة بالبرد لا تمنع إصابة أخرى . وقد يتفق أن يصاب أحدهم بالبرد بعد أسبوع واحد من إصابة سابقة . والنظرية التي تقوم عليها نظرية الحقن بالطعم الواقي هي أن يصاب الجسم إصابة خفيفة ، فتحدث فيه مناعة تقيه إذا تعرض للعدوى بذلك المرض . فإذا لم تحدث للناعة من إصابة شديدة بالمرض نفسه ، فالحقن يكون تضييعاً للوقت لا فائدة منه . هذا موقف الطعم الواقي من البرد في الوقت الحاضر ، وكل الذين جربوه من قبل أخذوا يفقدون الثقة به الآن .

واقٍ محمود العاقبة

هنالك طريقان : طريق الوقاية من البرد ، وطريق لتقصير مدته إذا حدث .

إن اصابات البرد تحدث بمضاعفاتها نسبة كبيرة من أمراض الانسان . فلولا البرد لما كان الصمم إلاّ نادراً جداً . والتهاب الجيوب مرض مقضيٌّ عليه إذا لم تكن إصابات البرد . وزكام الانف ، وما يترتب عليه من إصابات بأمراض تنشأ عنه في الأمعاء والمعدة والقولون تصبح جميعاً في حكم العدم . وقد يقل الصداع بأنواعه . وكذلك ذات الرئة والسل قد تقل نسبتهما ، وأما حمى القش والربو فقد يصبحان من النوادر .

ولا يستطيع أحد أن يمنع كل إصابات البرد . ولكن دكتور « بوش » قد استطاع أن ينزل عدد الاصابات التي أصيب بها بعض مرضاه بنسبة الثلث . وقد سجل ذلك مدى

ثلاثين عاماً اتخذ فيها نوعاً خاصاً من العلاج . ومرمى هذا العلاج هو أن يجعل الهواء يتخلل الأنف والزور وييسره بحالة سوية . ولكي يصل الانسان إلى هذه النتيجة ينبغي له أن يزيل كل العوائق الآتية بأن يوسع مجاريها بواسطة أصبعه البنصر . ولا تعيق هذه الطريقة دورة الدم ، فإن شعيرات الدم بعيدة عن التأثر بذلك فلا تتمزق . فإذا كانت العظام قد انتقلت من مكانها السوي بحادث سابق أو تكون قد عيقت عن النماء بفعل طبيعي ، فمن الممكن ردها إلى مكانها ، فلا تعوق المريض عن التنفس بفتحتي أنفه تنفساً حراً . ومالم يكن الأنف مصاباً بعرض آخر يعوق ذلك ، فإن هذا العلاج يمنع كثيراً من إصابات البرد بالرغم من التعرض لعدواها .

فلذا انفتحت مجاري الأنف زالت العوائق التي تسد الجيوب أيضاً فتتنقى وتظل تقية بالتمخط ، وهو الطريق الذي ابتدعته الطبيعة لتطهير الجيوب من نفاياتها . ويمكن أيضاً إزالة الالتصاقات « الأنفيبلعومية » — nasopharynx (الأنفية البلعومية) وتزول معها الجيوب التي تحدثها تلك الالتصاقات . وبزوالها يزول سبب آخر من الأسباب المهدئة لاصابات البرد والزكام الآتي . وكذلك يمكن إزالة النماءات الغدية فلا تعوق التنفس الأنفي ولا تمنع القناة الاوستاشية — eustachian tube — من تأدية وظيفتها فلا يكون هنالك أي تأثير على السمع بصورة سوية . إنا لا نستطيع أن نتخلص من الجراثيم ، ولكن في مكنتنا أن نقضي على قدرتها .

في طوقنا بعد أن نصاب بالزكام أن نقصر مداه ونخفف من أعراضه بطريقة مشابهة لهذه الطريقة . فان في قدرتنا أن نفك أسر الأعصاب إذا ضغطت عليها العضلات المتقبضة فأعاقتها عن اداء وظيفتها السوية . يمكن ذلك بتقويم العظام بواسطة اليد . فان مجاري الأنف يمكن فتحها واخراج ما بها من مصادر الداء . وتصريف النفايات يمكن تحسينه حتى تنبذ مصادر الاصابة وتعود حالة الصحة . ولا تقتصر فائدة هذه الطريقة على تقصير مدى الاصابة وتخفيف آلامها ، بل إنها تمنع مضاعفاتها ، فتقل الاصابة بذات الرئة والسل ، وكذلك خراجات الأذن والصمم .

وإن اصابات البرد من حيث علاقتها بالانتاج وضياع كثير من ساعات العمل ، أمر ينبغي النظر فيه . فان ما يفقده الافراد والمجموع من جراء ذلك ، كفيل بأن يجعلنا نصرف من العناية بها والعمل على التخلص منها أضعاف ما نعمل الآن . ولا شك أن لهذه الأمراض علاقة بالناحية الاجتماعية لا ينبغي اهمالها .

في مصر القديمة

الحروب بين ملوك الشمال وملوك الجنوب

قبل عصر الأسرة الثانية والعشرين

للدكتور بالفور بيوب

ترامت الينا أخبار الحروب الداخلية ، التي قامت بين ملوك اهناسيا في الشمال [1] وملوك طيبة في الجنوب [2] من الطرفين المتحاربين بصورة تجردت نصوصها من معرفة السبب الحقيقي الذي من أجله نشبت تلك الحروب

فيمكن أن يكون سببها (ا) خلافاً بين الفريقين المتحاربين على منطقة واقعة في حدود طيبة (بلدة أزوريس) ادعاها ملوك الشمال لانفسهم وكانت في يد ملوك الجنوب (ب) وقد يكون نزاعاً على الاختصاص الإداري بين موظفي الحدود كالحراس أو موظفي الضرائب في كل من المملكتين الشمالية والجنوبية (ج) وقد يكون شعور أمراء الجنوب بالحاجة الى توسيع حدودهم وشعورهم بقوتهم وبضعف الفريق الآخر (د) وقد يكون تطلع أمراء الجنوب الى الرغبة في توحيد مصر مدفوعين إلى ذلك بعامل القومية كما فعل الملك منا من قبل والملك احمس الأول فيما بعد

* *

وأني شخصياً أرجح السبب الأول مع السبب الرابع (ا) مع (د) وذلك لان الملك حتي الثالث واسمه كارع (وهو من ملوك الشمال المعترف بهم بأنه لا شك حتي الرابع (مري كارع) بأنه عمل على تمديد حدود مملكته الشمالية ردحاً من الزمن وبلغ بها حدود منطقة الشمالية ردحاً للاحاطة وسعياً وراء توحيد القطر (مري كا

---

(١) وقد سبق أن أشرنا إلى أن اهناسيا تقع في الجنوب وبعض ملوكها كانوا يحكمون الوجه القبلي وكانت عاصمتهم بلدة اهناسيا المدينة

والذي نعلمه عن هذه الحروب هو ان أول ملك من ملوك طيبة ذكر التاريخ أنه حارب البيت الاهناسي هو الملك أنتف الثاني (واح عنخ) وذلك لأنه من الثابت ان المنطقة التي كان يحكمها هذا الملك تبدأ من المنيا جنوباً وتنتهي في طيبة شمالاً أي في القسم الاداري المصري القديم رقم ٨

* * *

وقد عرفنا من لوحة حجرية وجدت في الجورنه مؤرخة من عصر الملك (واح عنخ) وموجودة الآن في المتحف المصري وهي للسير الاوحد جاري وفيها يذكر : « . . . بعد الحروب التي لشبت مع ملوك البيت الخيتي في المنطقة الغربية من طيبة » فمن استطاعتنا ان نجزم من هذا النص بان ميدان الحرب بدأ في أقصى المنطقة الشمالية التي كانت تحت حكم الملك انتف (واح عنخ) أي في بلدة طيبة الواقعة في قسم ابيدوس

والظاهر أن نتيجة هذه الحرب كانت في مصلحة ملك طيبة لأننا نعلم فيما بعد ان حدود هذا الملك الشمالية وصلت إلى منطقة أعلى من طيبة وهي منطقة قسم الثعبان أي وصلت إلى القسم العاشر الاداري من أقسام مصر الادارية .

* * *

وقد حافظ هذا الملك على هذه الحدود إلى السنة الخمسين من حكمه لأنه لدينا لوحة موجودة بالمتحف المصري مؤرخة في السنة الخمسين من حكمه وفيها يسجل : « ... ان حده الشمالي وصل إلى قسم الثعبان » أي ان هذه المنطقة قد اعتبرت حدًّا شماليًّا . وعليه فالنتيجة النهائية هي انه في السنة الخمسين من حكم (واح عنخ) لم يتم الاستيلاء على اقليم ابيدوس فقط بل وصل الى القسم العاشر

ولكن حكم ملوك طيبة على هذا القسم العاشر الذي انتصر عليه (واح عنخ) لم يستقر ولم يكن نصيبه الهدوء والسكينة بل ثارت بعض الاجزاء على من حكموا بعده كما ذكرت لنا لوحة حجرية لموظف يدعى « ايكا أووانتف » فنجد حاكم اسيوط المدعو « تف ايبي » والذي كان يعاصر ويشايع الملك الاهناسي خيتي الثالث (واح كارع) يجلي جيش طيبة في موقعة بحرية عن القسم العاشر باسم ملك الشمال ويطاردهم للرجوع جنوباً إلى حدود الطرفين القديمة أي إلى طيبة .

ثم أرجع الملك منتوحتب الأول قبيل وفاته حدود مملكته كما ابن عهدها إلى قسم النعمان أي القسم العاشر .

نعلم أن ابن « تف ابي » المدعو خيتي والذي كان معاصراً لملك الشمال خيتي الرابع (مري كارع) قد حارب مع ملوك الشمال في القسم الحادي عشر ضد ملك الجنوب .

بعد ذلك نعلم أن ملوك طيبة نجحوا في امتداد سلطانهم إلى شمال المنطقة الشمالية السابقة فاستولوا على أسيوط نفسها وهي في القسم الثالث عشر ، وبذلك ينتهي تاريخ أمراء أسيوط فعلاً أيام (خيتي بن تف ابي). وتكون منطقة القسم الثالث عشر هي أعلى ما بلغ اليها ملوك طيبة .

ويعلم بعد ذلك من نصوص حاتنوب الواقعة شمالي أسيوط أي في القسم الخامس عشر أن حروبا قامت في هذه الجهة أدت إلى استيلاء ملوك طيبة على هذه المنطقة .

***

وأخيراً استطاع ملك طيبة المدعو « نب حبت رع » (منتوحتب الثاني) بعد ذلك من توحيد المملكة المصرية مبتدأ بذلك حوالي سنة ٢٠٧٠ قبل الميلاد عصراً جديداً ممتازاً في تاريخ مصر القديمة وهو المعروف بعصر التوحيد الثاني (عصر الدولة الوسطى) .

وقد استمر توحيد المملكة المصرية في عهد خلفه « سمنخ كارع » (منتوحتب الثالث) ونب تاوي رع (منتوحتب الرابع) وباقي ملوك عصر التوحيد الثاني .

وبهذه المناسبة نقول ان عدد ملوك بيت طيبة (المعروفين بملوك الأسرة ١١) وترتيبهم كالآتي على حسب أحدث الآراء :

(١) انتف الأول (سهرتاوى) (٢) انتف الثاني (واح عنخ) (٣) انتف الثالث (نخت نب تب نفر) (٤) منتوحتب الأول (سمنخ ايب تاوى) (٥) منتوحتب الثاني (نب حبت رع ويقرأ خطأ نب خرورع) (٦) منتوحتب الثالث (سمنخ كارع) (٧) منتوحتب الرابع (نب تاوى رع)

ويلاحظ ان بعض هؤلاء الملوك كان معاصراً لملوك البيت الاهناسي كما شرحنا

مفردات نباتية

محمود مسيلة الرصاطي بك

ورد بعضها ضمن مفردات ابن البيطار وهي التي استعارها العرب من لغة السريجيين الاسبانيين وسماها ابن البيطار اللغة اللاتينية . أوردتها مرتبة بحروف المعجم . وقد اعتمدت في حقيقتها على ما جاء في بحث للعلامة لكليرك أحد عاصره بالأخص من الترجمة العربية لديسقوريدس بالفصوط ١٠٦٧ من اللغة العربية لدار الكتب الامبراطورية فرنسا ونشره بالجريدة الآسيوية في يناير سنة ١٨٦٧ بعنوان « تعليق على الترجمة العربية لديسقوريدس والتراجم العربية عموماً تتمة للدراسات اللغوية عن ابن البيطار »

﴿ انطربيا ﴾ هي الهندب والهندبا والهدبا والحندبا والعامة تقول حندقة وفي الاسبانية endivia والبرتغالية endivia والانجليزية endive chicory والفرنسية endive وفي اصطلاح النباتيين Cichoreum — حشيشة تقل من الفصيلة المركبة .

﴿ بشتاقة ﴾ في الانجليزية parsnip والفرنسية panais وفي اصطلاح الباحثين Pemedanum sativum — نبات من الفصيلة الخيمية .

﴿ بلتان ﴾ هو لسان الحمل وفي الاسبانية buglosa والانجليزية bugloss والفرنسية buglose وفي اصطلاح النباتيين Anchusa — حشيش نباتي من فصيلة الشجيرية عرض لورق أشبه برهر حنة كالحشاش .

﴿ بوزيدة ﴾ وتسمى بالبستفاج وبالكثير الأحمل وأم اللبن الكبير وبسنة جدون وفي الانجليزية والفرنسية وفي اصطلاح النباتيين حشيش نباتي من الفصيلة له عروق دقيق إلى السمرة والحمرة ... الخضرة ذات شعب كالدوسة الشجيرة الأرجل .

﴿ جقوطة ﴾ هي الشوكران وفي الانجليزية hemlock والفرنسية ciguë وفي اصطلاح النباتيين Conium — جنس نبات من الفصيلة الخيمية وهو المشهور في مفردات الأطباء .

﴿ جنتو ﴾ هو السُلت وفي الاسبانية centeno وسمّاه ديسقوريدس tragus وفي الانجليزية rye والفرنسية seigle وفي اصطلاح النباتيين Secale — جنس نبات من الفصيلة النجيلية .

﴿ جنطورية ﴾ هي القنطاريون والقنطوريون وفي الانجليزية centaury; knapweed والفرنسية centaurée وفي اصطلاح النباتيين Centaurea — جنس حشيشة من الفصيلة المركبة مرّة الطعم جدًّا وتعرف في مصر بالمرور والمرّير ومرّة النجة .

﴿ رابنة ﴾ هي الفُجْل والفُجُل وفي الانجليزية radish والفرنسية radis وفي اصطلاح النباتيين Raphanus — جنس عشب من الفصيلة الصليبية له أرومة تؤكل ذات لحم أبيض وقشر أحمر أو أبيض أو أسود وورق عريض .

﴿ شالية ﴾ هي الالفاق باليونانية وفي الانجليزية sage والفرنسية sauge وفي اصطلاح النباتيين Salvia — جنس نبات من الفصيلة الشفوية . وتعرف في مصر بالمريمية والرّعل وشجرة الغزال والغبيش والعَرِيشم .

﴿ شبوق ﴾ هو الخُمّان ويسمّى في مصر بالبَيْلَسان وفي الاسبانية sabugo والانجليزية elder والفرنسية sureau وفي اصطلاح النباتيين Sambucus — جنس شجر من الفصيلة البيلسانية .

﴿ شبينة ﴾ هي الأَبْهَل والعامة تقول الأَبْهُل بالضم وفي الانجليزية savin والفرنسية sabine وفي اصطلاح النباتيين Sabina Juniperus — شجر كبير من الفصيلة الصنوبرية ورقه كالطرفاء وثمره كالنبق .

﴿ شطرية ﴾ هي الشَدَغ والشَدَغ والسعتر البري وفي الانجليزية savory والفرنسية

sarriette وفي اصطلاح النباتيين Satureia — جنس نبات من الفصيلة الشفوية .

﴿ طرفة ﴾ هي الطَّرْفَاء والأثل وتسمى في مصر عَفَص أحمر وفي الانجليزية tamarisk والفرنسية tamaris وفي اصطلاح النباتيين Tamarix — جنس شجر من الفصيلة الطرفائية .

﴿ فلجة ﴾ هي السرخس الذكر وفي الانجليزية male fern وسماها ديسقوريدس filix وبالفرنسية fougère mâle وفي اصطلاح النباتيين Dryopteris Filix mas — نبات من السراخس .

﴿ قاقرة ﴾ هي الكُزْبُرَة والكُزْبَرَة والكَزْبَرة والكُسْبُرَة وتفتح الباء . معرَّب كُسْبَر بالكلدانية وتسمى بلغة اليمن ثِقْدَة وفي الاسبانية coentro والانجليزية coriander والفرنسية coriandre وفي اصطلاح النباتيين coriandrum — جنس نبات من الأبازير فصيلته الخيمية ويعرف بزرها بالجلجلان .

﴿ قرنولية ﴾ هي القرانيا وتسمى في بلاد الجزائر قراصية وفي الانجليزية dogwood والفرنسية cornouiller وفي اصطلاح النباتيين Cornus — جنس شجر جبلي ثمره كالزيتون من الفصيلة القرانية .

﴿ قيرونش ﴾ هو النَّبق (عن بوست) وهو غير السِّدْر المعروف وفي الاسبانية scambrones وبالانجليزية buckthorn والفرنسية nerprun وفي اصطلاح النباتيين Rhamnus — جنس شجر من الفصيلة النبقية .

﴿ لوره ﴾ هي الغار والرَّنْد وفي الانجليزية laurel والفرنسية laurier وفي اصطلاح النباتيين Laurus — جنس شجر من الفصيلة الغارية له دهن كثير المنافع .

﴿ مطرنيس ﴾ هو القطلب وفي الاسبانية madroño والانجليزية arbute strawberry-tree والفرنسية arbousier وفي اصطلاح النباتيين Arbutus — جنس شجر من الفصيلة الاريكية يكثر في جبال الشام دقيق الورق ناعم شديد الحمرة يحمل حبًّا

نحو العنب أخضر فاذا نضج كان أحمر كالياقوت طيب الرائحة حلو الى قبض إذا مضغ صار ثفله كالتين

﴿ ملندر ﴾ هو البَشْج وفي البرتغالية memendro والانجليزية henbane والفرنسية jusquiame وفي اصطلاح النباتيين Hyoscyamus — جنس نبات من الفصيلة الباذنجانية . مسبت مذهب للحس . معرب بنك بالفارسية . ومن أسمائه في مصر الناطورة وسم الفار وشجرة السكران والشيكران .

﴿ نابه ﴾ هي اللفت والسلجم وفي الانجليزية rape والفرنسية navet وفي اصطلاح النباتيين Brassica Napus — نبات من الفصيلة الصليبية .

﴿ يذرة ﴾ هي اللبلاب الكبير والعصبة وعاشق الشجر وحبل الساكين والقيسوس وفي الاسبانية Yedra والانجليزية ivy والفرنسية lierre وفي اصطلاح النباتيين Hedera جنس نبات من الفصيلة الارالية ورقه كورق اللوبيا يتعلق على الشجر ويسمى في مصر بالعلّيق

﴿ يرنه قرجباله ﴾ هي الهيوفاريقون وفي الاسبانية coraion zilho والانجليزية Saint John's wort والفرنسية millepertuis وفي اصطلاح النباتيين Hypericum جنس نبات من الفصيلة الهيوفاريقية

﴿ ينجه ﴾ في الاسبانية junco والانجليزية cat's-tail والفرنسية massette وفي اصطلاح النباتيين Typha — جنس نبات من الفصيلة التيفية يسمى في مصر بالبردي والديس .

﴿ ينجه ﴾ هي الإذخر والإذخر وطيب السَرَب والظلال الأموني لأن الأمون كان يتخلل بها وفي الاسبانية junco والانجليزية lemon grass والفرنسية citronnelle; jonc odorant وفي اصطلاح النباتيين Andropogon Schoenanthus حشيشة طيب الرائحة من الفصيلة النجيلية .

مكتبة المقتطف

الفتح مستمر : للاستاذ فؤاد صرّوف

هدية المقتطف سنة ١٩٤٤ : ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير

عني الاستاذ فؤاد صروف بأن يغذّي الموهبة التي وهبها بطبعه ، وأن يقوّي الاتجاه الذي اتجهه في التعليم : فأن بتابع البحث والكتابة في الموضوعات الطبيعية ، والتوسع فيها ، والسعي في شعابها المختلفة ، فتابع نشر بحوثه في المقتطف وفيما ألقى من محاضرات حتى كادت تكون حياته العلمية مقصورة على هذه الناحية . وللأستاذ صرّوف قدرة خاصة على تبسيط العلوم التي تناول مختلف فروعها بالكلام فيما كتب من المقالات والكتب ، فإذا قرأته فائماً في أدق الموضوعات الطبيعية أو الحيوية ، فكأنك تقرأه قاصًّا على العامة منسجم القول مبيناً منسجماً ، بعيداً عن التعقيد ، قريباً من عقلك وقلبك . فأسلوبه من الدعائم التي قرّبت موضوعات العلم من ذهن الأديب والفنان ، وذلك أقصى جهد يبذله المثقف من المثقفين ، وأسمى مرتبة يطمع فيها من يحاول أن يجعل المعرفة بوجهاتها المختلفة ملكاً مشاعاً للجميع .

***

وكتابه الأخير « الفتح مستمر » دليلٌ حيّ على ذلك فقد تناول فيه ثلاث جهات من العلم : الكون والمادة ، وأسرار الجسم الحي ، والصحة والمرض ، وهي جهات على اتساع ما بينها من الفروق ، ضمّها العلم في بوتقة واحدة وجمع بينها في بوتقة بعينها من الفكر ، فبسّطها الأستاذ صرّوف أروع تبسيط وأدّاها أحسن أداء .

الطب التجريبي
مدخل الى دراسته

تأليف كلود برنار، ونقله عن الفرنسية الدكتور يوسف مراد والاستاذ حمد الله سلطان، وأخرجته ادارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية بمصر، ويقع في ٢٤٤ صفحة من القطع الكبير، طبع المطبعة الاميرية سنة ١٩٤٤.

جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما يلي:

« وكلود برنار (١٨١٣ — ١٨٧٨) أحد العلماء الذين شعروا في أثناء بحوثهم العلمية بضرورة الوقوف هنيهة وإعادة النظر في أسس العلم العقلية والتجريبية، وفي صلة العلوم بعضها ببعض، وفي قيمة القوانين العلمية من حيث يقينيتها ومدى صحتها من حيث هي عنصر من عناصر تفسير الكون بأسره. وقد ضمّن كلود برنار آراءه الفلسفية في هذه المسائل في عدة مقالات نشرتها مجلة العالمين، وفي هذا الكتاب الذي تقدمه لقراء اللغة العربية وهو « المدخل إلى دراسة الطب التجريبي ».

وقد حصر كلود برنار همه في التقريب والملاحظة والتجربة وزاد إلى ذلك أن قرّب بين الاستنتاج والاستقراء، مبيناً أن منهج العلوم التجريبية ليس منهجاً استقرائياً فحسب، بل إنه منهج استقرائي استنتاجي أو كما يقال منهج فرضي استنتاجي. وقد أشار بذلك إلى الأثر الهام الذي يخلقه الحدس في تكوين الفكرة التجريبية، وإلى ضرورة الشك أولاً في نتائج التجربة حتى التأكد من صحتها نهائياً، بإقامة التجارب العكسية.

ولا شك عندنا في أن وزارة المعارف قد أدّت خدمة جليلة بنقل هذا الكتاب وطبعه. ولا يسعنا إلاّ أن نأمل من الوزارة أن تنشر هذا الكتاب بين طبقات المتعلمين نشراً واسع النطاق. فإنه دستور ثابت للبحث العلمي والعقلي، وأساس تعليمي من أروع الأسس التي ينبغي أن يعم العلم بها طبقات المثقفين. والمبادىء التي تضمنها لا يستغني عن العلم بها عالم أو أديب أو فيلسوف. ولقد سمعت من قبل بعض النقاد يقولون أن الكتاب قديم وإنه قليل الفائدة في عصرنا الحاضر. ولم أكن قد اطلعت عليه. فاذا بالترجمة العربية توحي لمن يطلع على هذا الكتاب أنه جديرٌ بما أحدث في الفكر الفرنسي في عهده، وأنه أجدر بأن يحدث في هذا الجيل من أبناء العربية، أثراً أبين وأعمق.

وأسلوب الترجمة على وجه عام أكمل ما ينتظر لمثل هذا الكتاب العقد، فقد بذل فيه المترجمان الفاضلان جهد المستقصي، وغالب الظن انه لم يفتهما من المعنى الأصلي شيء، اللهمّ إلاّ الهنات التي لا يسلم منها مترجم ينقل من لغة الى لغة، والمترجم كما قيل كناقل روح

من جسم إلى جسم ، لا يؤمن استيحاشها منه . وبالرغم من هذا فان العبارات بيّنة والأسلوب سهل على قدر ما يمكن السهولة في كتاب يخرج من عقل فيلسوف عالم، يجمع فيه بين طرفين متباعدين .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ان في بعض الاستعمالات التي وردت في المقدمة وفي صلب الكتاب ما كان ينبغي أن لا يفلت منه مترجمه وهما من نعلم منزلتهما من العلم والفضل ، ولكنه على كل حال نقص القادرين على التمام . فقد ورد في المقدمة استعمال كلمة فيزياء مرات ومرات فيزيقا ، فذكر كاتب المقدمة الفيزيقية الكيميائية ثم فيزيائية وكيائية ، ثم قال الكيائيين والفيزيقيين وكلها تعريب لكلمة — Physics — وكان من الواجب أن يوحد رسم الكلمات طلباً للضبط ورفع اللبس عند المبتدئين. كذلك ورد في ص ١٦٨ العبارة الآتية: « في الأوردة وفي الشرايين ، وفي القلب الأيمن وفي القلب الأيسر » الخ . والواقع انه ليس هنالك قلب أيمن وقلب أيسر ، وإلا لأصبح للانسان قلبان ، وانما له قلب واحد فيه بطينان ، البطين الأيمن والبطين الأيسر .

على أن هذا لا ينقص من قيمة الكتاب . فأغلاط هذه الهنات وغيرها ، وهي قليلة ، هنات شكلية لا تصيب من الموضوع والجوهر شيئاً . وانا لنستحث وزارة المعارف على تزويد الحركة الفكرية بالكثير من أمثال هذه الكتب النافذة التي هي لدى الواقع لب النهضة الفكرية ، والنور المشعّ الذي يلمع في سماء الفوضى التي تنمر حركة التنوير الحديثة في مصر ، وقد أحد بعض الناشرين يلقون في تيارها بكتب سمجة الموضوع غثة الفكر ، يؤديها أسلوب كأنه الرصاص ، صلب بارد ثقيل .

ا . م

من حرب عالمية الى سلم عالمي

تأليف الاستاذ ليون بليلوس طالب الانجليزية — ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط ، طبع بمدينة الاسكندرية سنة ١٩٤٤

From Global War To Global Peace. By Leon Belilos. A Twentieth Century Charter and a Rallying Ground. The Means of Achieving the Principles of the ATLANTIC CHARTER.

The Ways and Means of Achieving the Six Essential Freedoms Regarding : WANT — FEAR — WORSHIP — EXPRESSION — IGNORANCE - WAR

عالج المؤلف في كتابه هذا مشكلات هذا العصر بروح نفاذ تعجب رجال السياسة . فكل الكتاب من أوله إلى آخره معروف الى الاصلاح على أساس تغيير العقلية الانسانية بالقضاء

على النزعتين السياسية والحربية وتحكيم العلم في ترويض النزعات الانقلابية وعلاج السلوى التي ورثناها عن الماضي بتنظيم الحياة على أساس علمي ينصرف إلى دراسة الادواء الاجتماعية دراسة علمية ويقوّم النظم على قاعدة ما تدعو اليه الحاجة من تغيير في النظم القائمة تغييراً يضمن سير التطور الطبيعي للجماعات ، ويمنع عنها سورات الانقلاب والثورات .

فالمؤلف من التطوريين الذين يقولون بأن التطور أساس الاصلاح ، وإن ذلك الاساس يقتضي أن يأخذ الخطا الطبيعية التي تنقله درجة بعد درجة إلى آفاق جديدة بحيث لا يشعر الناس بأنهم انتقلوا من حالة الى أخرى ، إلاّ بأن ينظروا إلى الماضي فيقيسون ما هم فيه على ما كانوا فيه ، فلا تصدمهم في الحياة نظامات عتيقة تدعرهم بأن الحالات القائمة من حولهم قد تخلفت عن حاجاتهم المعيشية وآمالهم ومطامعهم ، شأن الناس في هذه الفترة العصيبة . ولا شك في أن القلق الذي يسود عالم الانسان الآن إنما يرجع إلى أن الجماعات خانقت من ورائها نظامات يريد رجال السياسة والحرب أن يلزموها الخضوع لها قسراً ، غير ناظرين إلى أن حكم التطور الطبيعي لا رادّ له ، وإن ما تطلب الطبيعة أن يكون ، لا بد من أن يكون .

وبالرغم من أن السياسيين ورجال الحرب يشعرون بنفس القلق الذي يشعر به العلماء ورجال الاجتماع ، فهم لا يزالون في أسر تلك العقلية القديمة التي تزين لهم أن تماحكات السياسة وقنابل المدافع في استطاعتها أن تكبح سير الطبيعة وأن تقف تيار النشوء الاجتماعي

وسنعود إلى الكلام بالتفصيل عن وجهات من النظر تصدّى لها المؤلف وسنتناولها بالعرض والنقد في صفحات المقتطف ، وسننشر أول شيء مقالاً بعنوان «الخطايا العشر» في عدد مارس المقبل ، نفصل فيه القول فيما مهد به المؤلف لكتابه من الاخطاء التي توسع هوّة الخلف بين الشعوب والطبقات والأفراد . والكتاب جدير كل الجدارة بأن يمعن النظر فيه ، كل من يشعر بأن العالم في حاجة إلى الخروج من دائرة الفكرة القومية إلى دائرة الفكرة العالمية ، التي يرمي اليها ميثاق الأطلنطي .

أعلام الاسلام : محمد عبده

تأليف الدكتور عثمان أمين — نشرته لجنة دائرة المعارف الاسلامية : ١٤٢ صفحة من القطع الصغير

هو الكتاب الخامس في سلسلة أعلام الاسلام التي تصدرها لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية وقد تقدمه أربعة كتب أخرى عن حجمه في عمرو بن العاص ومنصور الاندلس وبشار بن برد والمعز لدين الله . والعمل في قوامه من أجود الاعمال الادبية التي فكر في اخراجها شبابنا المتعلم ، يورك فيه . فن حياة الامم انما تظل ناضة بصور الحياة ما اتصل

حاضرها بماضيها ، فاذا انفصمت تلك العقدة الحيوية ، انفصم معها رباط القوة التي تصل بين المقومات الحيوية ، فتنحل الحياة الفكرية وتفقد معها المعاني التي تعيش الامم وتستهدي بها ، معاني الوطنية والمجد القومي والشعور بالعزة ، تلك المعاني التي هي الروح الحي المبث في تضاعيف العقل الاجتماعي وتختفي دائماً في وعي العقل الفردي ، فتمد الحياة بجهتيها جهة الفرد وجهة الجماعات ، بالمثاليات التي تثير لها سبيل التقدم وتمدها بالقيم التي تقودها في الحياة .

ولقد أحسن القائمون بنشر هذه السلسلة باختيار موضوع هذه الحلقة إذ خصت بها رجلاً لا يزال جيلاً متأثرين بحياته ، كما أحسنوا في أن عهدوا بها إلى أستاذ استطاع أن يبسطها أبين البسط ويؤديها أقوم الاداء . فالترجمة عن حياة الرجل تمضي في تدرج طبيعي من الطفولة الى الرجولة إلى نبوغ الكهولة ، ويظهرك على السبيل التي تكونت بها عقلية الامام محمد عبده والحوادث التي أثرت في تكوينها حتى أصبحت ما هي . وقد أشار مؤلفها الفاضل إلى ما كان للمترجم عنه من أثر في الصحافة وحرية الفكر والسياسة والحكمة ، وبين ما كان من أمر علاقته بالفيلسوف الكبير جمال الدين الافغاني ، وما تركت في عقله المتوثب من أثر ثابت باقٍ .

على أن الترجمة قد أظهرت لنا ناحية أخرى من نواحي حياة الامام ، ولو ان إظهارها لم يكن بطريق ايجابي ، بل كان بطريق سلبي صرف . وقد التزم المؤلف في ذلك ناحية الأمانة الصرفة . فانه لم يتكلم في حياة الأستاذ من حيث اتصالها بالحركة العلمية التي نشأت في خلال حياته في أوربا فقضت على المذاهب القديمة في العلم والفلسفة بقيام مذهب النشوء والتطور في انجلترا وما شارك قيامه من معارك فكرية في ذلك العصر . ولم يتعرض لما تكلم فيه الاستاذ والسيد جمال الدين من الرد على الدهريين وقد عنيا بهم التطوريين أنصار مذهب النشوء والارتقاء ، وحسناً فعل . فان الخطوة التي خطاها السيد والشيخ ، كانت خطوة علمية ولكن الى الوراء ، فأهمل الكلام فيها . والحق ان الكلام في ذلك كان خارجاً عن مجالها فلم يصبها فيه . ولم يوفقا في نقودها التي وجهاها إلى المذهب الذي قلب نواحي الفكر في القرن التاسع عشر .

وأسلوب الكتاب رائع فيه بساطة وجمال . ولا استدراك لنا على ما استعمل فيه المؤلف الفاضل من الالفاظ إلا قوله « اللاهوتي » (ص ٢٥) وقد عني بذلك الامام محمد عبده ، ويحسن أن تترك هذا الاستعمال للكلام في اللاهوت المسيحي . وغالب ما أذهب اليه انه لا يوجد لاهوتية في الاسلام ولا يوجد لاهوتيون عند المسلمين .

أبو العلاء المعري

فيلسوف الشعراء

رسالة من منشورات مجلة المرشد للاستاذ الاب يوحنا قمحوري اليسوعي ، استاذ الآداب العربية في معهد الرسالة اليسوعية — حريصا ، لبنان — ١٩٤٤ — ٦٠ صفحة من القطع الكبير ، أصدرتها مطبعة القديس بولس

ان الفارق الذي نلحظه بين القول بأن المعري فيلسوف الشعراء أو أنه شاعر الفلاسفة ، ينبغي أن يكون له وزن كبير في أي نقد نتناول به مذهب هذا العبقري الفذ . فهو إما أنه فيلسوف إلى الشعر ، أو انه شاعر إلى الفلسفة . ولكل من الاعتبارين أثر في توجيه القول. فاذا نظرنا في مذهبه من حيث هو فيلسوف فرضنا عليه أن يكون علمه بالفلسفة أساساً للنقد ، وإذا نظرنا فيه من حيث هو شاعر فرضنا عليه أن يكون فنه الشعري أساساً للنقد . والأستاذ الفاضل مؤلف هذه الرسالة ممن يقولون بأنه فيلسوف غلب عليه الشعر ، في حين أننا نرى أنه شاعر غلبت عليه الفلسفة . بل نذهب إلى أكثر من هذا فنقول إنه شاعر ينزع إلى التأمل الفلسفي ، لأن قولنا بأن المذهبية الفلسفية لا التأمل هي الغالبة عليه، ظن قد يسوقنا إلى وجهة في النقد مضلة مفسدة . بل ان لدينا دليلاً قاطعاً على أنه شاعر قبل أن يكون متأملاً في الفلسفة. فان جماع ما قال من الشعر عبارة عن فن من القول الشعري عبّر به عن آراء ذاعت في عصره نقلت عن فلاسفة العالم الحاذ به ، تلك الآراء التي غزت العقل العربي شمالاً من اليونان وغرباً من الاسكندرية وشرقاً من فارس والهند ، فهو القيثارة الشعرية التي ارسلت نغمات من التأمل الفلسفي عبرت أقوى تعبير عن نزعات عصره الفكرية ، فليس لنا أن نؤاخذه على ذلك التناقض الذي بدا في بعض أشعاره إزاء مذاهب تباينت فيها آراء الفلاسفة تبايناً ، وليس التناقض الذي تقع عليه في شعر ابي العلاء إزاءها إلا تعبيراً صريحاً عن اختلاف وجهات النظر الفلسفي فيها .

وقد أثبت المؤلف الفاضل وجهة نظرنا في جميع صفحات الرسالة . فانه عندما تناول الكلام في مختلف نواحي نظراته الفلسفية ردها إلى أصول احدثت منها ، كما أنه مهد للكلام في تأملات أبي العلاء بكلام العلامة عبد العزيز اليمني الراجكوتي وهو في لبه اجمال لما ذاع في عصر أبي العلاء من الآراء الفلسفية وهي النبع الذي استقى منه شاعر الفلاسفة جميع تأملاته. والرسالة في جملتها من الدراسات القوية التي تمتاز بسلاسة الأسلوب ووحدة الفكرة والبيان.

كتب حديثة ظهرت

لوديع فلسطين

---

١ — تاريخ ما قبل التاريخ

لعبد الله حسين — مطبعة الشباب المحمدية

مؤلف علمي جليل كتبه الأستاذ عبد الله حسين المحامي فجمع بين علوم الجيولوجيا والانثروبولوجيا والحيوان والفلك والتاريخ والاجتماع والفلسفة والأديان. وقد حلا للاستاذ عبد الله أن يلخص محتويات الكتاب فقال في مقدمته: «أما موضوعه فانه يتناول تلك العصور البعيدة التي سبقت الحضارات التاريخية القديمة المعروفة مبتدئاً بالكون وظهور الحياة على الكرة الأرضية عارضاً التقلبات الطبيعية ونشوء الانسان وغرائزه وانتاجه المادي والعقلي. ولما كان هذا الموضوع يتطلب من الاستقصاء والاستيعاب ما تقصر عنه هذه الصفحات، كان جهادي أنني جمعت أصوله ولخصت فصوله وأوجزت تفاصيله ميسراً للمستزيدين أن يتناولوا من مراجعه المدونة في آخره . . . داعياً أبناء مصر والعروبة الى استكمال بحث هذا الموضوع». وصدّر المؤلف كتابه بشعار اتخذه لنفسه: «كل كتاب جديد لا يضيف جديداً إلى المعرفة: إما أن يكون رجعاً لصدى غيره، أو لغواً غير جدير بعناء القراءة».

فكتاب «تاريخ ما قبل التاريخ» من أفضل المراجع التي تسرد تاريخ الحياة على الأرض وكيف تكونت الكرة الأرضية والاجرام السماوية، وكيف ظهرت الحياة على وجه البسيطة. وهو يعرض نظريات أفلاطون وأرسطو وداروين وغيرهم. ثم يعكف المؤلف على دراسة المعادن المختلفة ونصيب مصر منها؛ ويروي قصص الكتب المقدسة عن الخليقة والطوفان وغيرها من الحوادث الهامة التي سبقت التاريخ، ويسرد فصولاً في الأديان وفلسفاتها، والسحر والدجل والطب والصيدلة. ثم يعود فيضمن كتابه فصلاً عن اللغة والكتابة والطباعة، ثم يتبعه بفصل آخر عن الصناعة والعادات المختلفة والتقاليد القومية ويعرض لموضوع الكيفات والخمور، ثم يكتب عن الفن والأدب والتمثيل والشعر، ويختم كتابه بفصل عن مؤتمرات الرياضة الدولية وقراءة الكف وشرح مبدأ التصوف.

ب — لافوازييه

لعبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين — مطبعة المعارف بمصر — سلسلة زهرا

ليس من يجهل لافوازييه وفضله العظيم على العلم التجريبي وتفانيه في خدمة الانسانية طريق هذا المضمار. وقد أصدرت مكتبة المعارف أخيراً كتاباً عن لافوازييه ترجم فيه عن حياته الأستاذان عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين. وذكر ثانيهما في مقدمة الكتاب أنه وقف في صيف عام ١٩٣٧ في شارع « لاماديلين » بمدينة باريس غير بعيد عن دار الأوبرا أمام تمثال « لافوازييه » العالم الشهيد: فذكر انه ولد عام ١٧٤٣، وأن فرنسا خاصة والعالم المتحضر عامة سوف يحتفل بعد ستة أعوام بمرور مائتي عام على مولده.

« وانقضت السنوات الست، فاذا فرنسا، بل واذا الانسانية المتحضرة كلها، قد صرفتها الغاشية العامة عن لافوازييه وغير لافوازييه. وقد رأيت برًّا بهذا العالم الشهيد الذي أتى في علم الكيمياء بما يشبه الخوارق، وهو العلم الذي أعيش له وأعيش عليه، أن أقدّم إلى قراء العربية هذه الترجمة المتواضعة إحياءً لذكراه ».

يشتمل الكتاب على ترجمة لحياة لافوازييه وسرد لفتوحاته في عالم العلم ونشاطه في الحدب على دور العلماء ومؤسساتهم وتضحياته في سبيلها بكل شيء. كذلك يحتوي الكتاب سرداً من نشاط لافوازييه السياسي، وكيف استشهد ضحية لغدر السياسة الحمقاء. وفي ذلك يقول المؤلفان: « صعد الى المقصلة رابط الجأش. وما هي إلا لحظة حتى كانت الثورة الفرنسية قد ارتكبت أشنع جريمة في تاريخها إذ حزّت المقصلة رأس لافوازييه، وفصلت بذلك عن فرنسا أعظم عقلها ».

وليس ثمة ريب في عبقرية لافوازييه. فقد استطاع وهو حدث أن يبدّ مشروعاً ضخماً لإضاءة باريس بطريقة اقتصادية سهلة. واستطاع وهو شاب في مقتبل العمر أن يجالس كبار العلماء ويناقشهم مناقشة الندّ للندّ، بل إنه حطّم كل تقليد وأصبح عضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية ولما يتجاوز الخامسة والعشرين.

هذه بعض النواحي الظاهرة في حياة لافوازييه، وقد بسطها العالمان الشابان عبد الحميد يونس (لا عبد المجيد كما ذكر خطأ في عدد سابق من المقتطف)، وعبد العزيز أمين، في الكتيب العلمي « لافوازييه ».

ج — قصة البنسلين

للدكتور مصطفى عبد العزيز — مطبعة المعارف بمصر — سلسلة اقرأ

وثمة كتاب علمي ثالث يبحث في قضية من أحدث القضايا التي تشغل الرأي العام في العالم وتذهله . فما أكثر الألسنة التي لاكت كلمة البنسلين في السنوات الأخيرة ، وما أطول ما كتبته الصحف عن تلك المادة السحرية العجيبة التي تُعد أعظم الكشوف العلمية الحديثة

وقد عن للدكتور مصطفى عبد العزيز أن يفرد كتاباً خاصًّا عن البنسلين يذكر فيه قصته بالطب ، مراعياً الروية العلمية في الكتابة والدقة في السرد . فكان مجهوده موفقاً إذ استطاع أن يجمع بين شتات المعلومات التي لم تعرف بعد طريقها إلى الكتب العربية ، ورتبها ، وسلسلها ، وعززها بالصور والرسوم ، فخرج كتاباً شاملاً يستطيع الرجل العادي أن يقرأه ويستوعب محتوياته دون عناء كبير .

ولما كان البنسلين نوعاً من الفطر ، فقد رأى الدكتور مصطفى أن يبدأ كتابه بتوضيح أنواع الفطريات ومزاياها وأضرارها ، وانتقل من ذلك إلى التحدث عن الأمراض الخبيثة التي تولدها البكتيريا والميكروبات وهما الأمراض التي لولا كشف البنسلين لظلت كالسيف المسلط على رقاب البشر ، ترعى وتحصد بلا ضابط أو رادع ولكن شكراً للاستاذين فلمنج وفلوري اللذين كان لهما الفضل في كشف البنسلين والسبق في دراسته حتى أمست عقارات الدنيا لا تعد شيئاً مذكوراً الى جانبه ، وهما العقارات التي كانت إلى وقت قريب تُعد إحدى معجزات الطب الخارقة .

وقد جاء في خاتمة الكتاب : « وإذا كان لكل قصة من قصص الحياة مرماها ومغزاها ، فمغزى قصة البنسلين هو ذلك الصراع المستعر بين الكائنات من فطريات وميكروبات »

تلك قصة البنسلين ، فاتنة الدنيا في القرن العشرين !

قاعدة جليلة

في التوسل والوسيلة

أصدرت دار المنار الطبعة الرابعة من هذا الكتاب لشيخ الاسلام ابن تيمية حرر فيه أهم المسائل الدينية التي اضطرب فيها المتأخرون ، وبين مذهب السلف الصالح فيها وهي : التوسل والاستغاثة والدعاء والسؤال والشفاعة والقسم على الله ببعض مخلوقاته والاستسقاء والزيادة والخوارق وحدود التوحيد والشرك وحق الله على عباده وحقهم عليه والفرق بين المخلوق والخالق والقول في التشريع ومراتب الحديث والمحدثين .

باب الأخبار العلمية

البحث الحديث وسموم الافاعي والعقارب

ليس هذا مجال الحديث المفصل في ما يصنع من أنواع اللقاح والمصل للأمراض المختلفة ولكن لا يفوتنا أن نذكر طرفاً من عجيب المباحث الحديثة التي تمّت في العصر الحديث لصنع مصل يقي من سموم الأفاعي والعقارب وبهذا المصل استطاع الانسان أن يفوز في النزاع بينهُ وبينها .

وقد أخذت المصانع الطبية تصنع معلاً يدعى انتيفنين يرجع الفضل في اكتشافهِ إلى الدكتور كالمت الفرنسي ، يقي من لدغ الأفاعي في أميركا الشمالية . وغيرها كالأفعى المقاة ذات الأجراس ، والأفعى ذات الرأس النحاسي وهو يباع في أنابيب يستطيع الصياد أو الزراعة أو أي شخص آخر معرض للدغ الأفاعي ان يحملهُ في جيبهِ ويجب أن يستعمل حالاً بعد حصول اللدغ أو على الأكثر في أثناء ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة بعد اللدغ ويبقى فعالاً مدة خمس سنوات بعد تحضيره .

ومما يؤخذ على هذه الطريقة أن نوعاً واحداً من المصل لا يستطيع أن يقي من كل أنواع سموم الأفاعي ، فالرجل الذي يتعرض للدغها يجب أن يكون حاملاً في جرابهِ أنواعاً مختلفة من الأمصلة الواقية من سمومها وعليه أن يكون عالماً لجميع خواصهِ حين يلدغ ليعرف نوع الأفعى التي لدغتهُ ليستعمل المصل الخاص بها والذي يقي من فعل سمها .

والعلماء ماضون في البحث للتغلب على هذه الصعوبة . ولا ريب في أنهم بالغون الغرض وفقهم الله .

يؤخذ السم من الأفعى بجعلها تعض بأنيابها على إناء زجاجي مستطيل تحيط بهِ مادة غروية . فيستقطر من كل أفعى ٣٠ قطرة من السمّ إلى ٤٠ قطرة . أو يقبض على الأفعى وتدلك فوق الغدد التي تحتوي على سمّها ، فينقطر السم من نابيّها . ثم يحقن هذا السم في حصان حقناً متزايدة المقدار ، مدة ١٦ شهراً في الغالب وبعد ما تنقضي بضعة أيام على الحقنة الأخيرة يفصد الحصان ، ثم يعاد فصدهُ ثلاثة أشهر بعد ذلك ، ويحضّر المصل الواقي من السم كما يحضّر مصل الدفتيريا . ويسرنا أن نقول أن للدكتور نوشه بك وكيل وزارة الصحة مباحث على جانب عظيم من خطر الشأن في تحضير المصل الواقي للتطعيم ضد سم العقارب . ولا جدال في أن لدغ العقارب منتشر في بعض انحاء القطر

المصري وخصوصاً في بعض أنحاء القاهرة والواحات والصعيد ، وينجم عنه جملة وفيات كلَّ سنة بين الأطفال عادة .

في سنة ١٩٢٢ مثلاً حدثت ٨٣٦ وفاة بلدغ العقارب

وقد أثبت الدكتور طلعت سنة ١٩٠٤ إنه يمكن تلقيح الماعز ضد سم العقرب وان مصل الماعز الملقح يبطل فعل هذا السم وتوسع الدكتور طلعت سنة ١٩٠٨ في هذا الموضوع ونجح في تطعيم الخيل ضد هذه السموم فوجد أن مصل الخيل المطعمة ذو فائدة في علاج المصابين . وهذه الطريقة وإن تكن صعبة الاستعمال وخطرة على الحيوانات المحقونة إلاَّ إنها المستعملة في تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب .

وقد استخرج الدكتور شوتله بك بعد ذلك القواعد العلمية التي يمكن بمقتضاها تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب فيحدث مناعة فعالة وأثبت أن الأرانب والخنازير الهندية يمكن اكسابها مناعة فعالة بحقن المصل المحضر في طريقته ، وإذاً يمكن تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب من الخيل بدون تعريضها للخطر الذي كانت تتعرَّض له في طريقة بلد القديمة .

من معجزات العلوم والفنون

أعظم اكتشاف زراعي

اكتشف الدكتور جوشاف اجلوف رئيس المعهد الكيميائي الاميركي ان مسحوق الكولكيتين وهو مسحوق أصفر سكري يضاعف حجم الخضراوات . وتكهن عن مستقبل منافعه بقوله انهُ ييسر زراعة أنواع جديدة من الفواكه والخضراوات فأثرت تفصيل هذا الاكتشاف العجيب نقلاً عن إحدى المجلات العلمية الأميركية :

في وسع المرء أن يصبح طالباً عبقريًّا من علماء النبات الذين تمكنوا من الاحتيال على الطبيعة . وقد يتاح له أن يفوق في هذا الفن الحديث ما بلغه بربنك في زمانه وذلك بمقدار طفيف لا يزيد على ملء نصف ملعقة من ملاعق الشاي من المواد الكيميائية التي سنصفها لك فيما يلي . فتتمكن من إنتاج فواكه وأزهار ضخمة وتوقف نمو غيرها بحيث لا تعدو جزءاً من حجمها الأصلي وتنمي نباتات عجيبة جدًّا في أشكالها .

وبهذا العلاج الكيميائي الطريف يتسنى علاج النبات الضعيف وجعله قويًّا وتوليد طعام خالية من البذور ثم قلب النبات وجعل جذوره تنمو فوق ساقه . وفي وسعك إذا شئت أن تقلع هذا النبات من منبته ثم تعيد غرسه بالعكس بحيث تدفن أوراقه في التربة

وتبقى جذوره في الهواء فلا يلبث أن يتأصل في الأرض من جديد وتنمو فيه أغصان جديدة .

وهذه الأمور جميعها بل ما هو أكثر منها يقضي أداؤها بمساعدة هرمونات وفيتامينات نباتية صناعية حديثة الاكتشاف وما زالت بعض النتائج التي تنتجها لا تخلو من الغموض إلى حدّ ما . أو هي كما قال أحد الزراع (أمور لا نستطيع إدراك كنهها) فيكفي القول « إنها وسائل تتخذ لتنظيم نمو النباتات » أو بتعبير آخر إنها وسائط تساعد الزراع على اكتشاف الحاصلات وتحسين أحوالها . ومن شأن هاتيك المواد الكيميائية تقوية النبتة حتى تستطيع شق طريقها في التربة شقًّا أسرع من المألوف . ثم توليد جذور أضخم من المعتادة تنتج نبتة قوية تحمل فاكهة يانعة من طراز واحد .

الهرمونات الجديدة تقمع الآفات الزراعية

ويمكن بعض هذه الهرمونات الجديدة المعاونة على قمع الآفات الزراعية . كما إن بعضها يسوغ استعماله لتأخير النمو الطبيعي للنبات . وهذا من شأنه وقاية المحصول من أضرار تقلب الأجواء في حالة نموه عاجلاً بحرارة مباغتة قبل زوال خطر الصقيع . ومنها هرمون يرش على شجر التفاح فيثبت ثمره في أغصانه حتى يتم علاجه فيتقي البستاني الخسائر التي تنشأ عن سقوط التفاح بنفسه أو بالرياح . وكذلك يتيسر منع بعض الخضراوات من التزريع حين تخزينها كالبصل والبطاطس بأن يرش أكياسها بإحدى تلك المواد الجديدة

أسماء الهرمونات ومنافعها

— وتعرف هذه المركبات الكيميائية التي تحدث هذه المعجزات الزراعية بأسماء فنية هي كما يأتي : —

حامض الاندول أسيتيك Indole acetic واليفولينيك levulinic acid وفيتامين أسيتاميد وفيتامين ب رقم ١ — وغيرها من الفيتامينات . والعالم الأمريكي الذي يستعمل هذه المواد وغيرها هو جورج ي وارنر صاحب المباحث الأصلية في استعمال فيتامين ب — ١ — في النبات وذلك لصنع أشياء جمة مما يستطاع صنعها في معهد مباحثه في مدينة بساديا في كليفورنيا حيث يشاهده الزائر يرش قطرة من أحد السوائل في وعاء يحوي أزهاراً مقطوفة فتظل غضة أسبوعاً كاملاً . ولا غرو فقد تناول الأستاذ وارنر عقل أزهار الكاميليا ، وهي مشهورة بكونها عسيرة التأصيل كل العسر ، فنقعها في سائل كالماء وذلك قبل غرسها في التربة . فلما غرست

بعد ذلك ، ولدت مجموعات قوية من الجذور في أسبوعين . وبفيتامين ب رقم ١ — وغيره من المواد الكيميائية أتيح لذلك العالم توليد جذور لاي نوع كان من عقل النباتات التي يعالجها خلايا حيّة فجعلها تنمو نموًّا منظماً . والخضراوات ونباتات الأزهار والشجيرات والاشجار التي يعالجها على هذا النمط تنضج قبل غيرها ، وتكتسب رونقاً أجمل منه في أخواتها وتكون أقوى من مثيلاتها التي حرمت العلاج . وأضحى في وسع الزارع الأمريكي أن يحذو حذو ورر وزملائه من الباحثين في كثير مما فعلوا من المعجزات الزراعية لأن كثيراً من المواد الكيميائية التي يستعملونها توجد في أسواق أمريكا على شكل مزيجات تحتوي على مواد منبهة للنمو مختلفة الأنواع لتستعمل لأغراض شتى . وما على الشاري إلا أن ينتقي منها الصنف الذي أثبت الاختبار صلاحيته لما يصبو اليه وزراعه من النتائج ولكن ربما تحقق الآمال في بعض الأحوال لأن النباتات جميعها ليست صالحة بدوجة واحدة لقبول التقوية النظيمة التي تنجم عن الهرمونات في أغلبها . كما إن هاتيك المواد الكيميائية لا تنتج نتائج عجيبة في التربات التي تزخر بالمواد القلوية . فعلى الزارع الحذر في اتباع الارشادات الخاصة بأية مادة من هذه المواد الكيميائية الجديدة المقوية لنمو النباتات إذ تقضي تلك التعليمات باضافة قطرة واحدة من أحد محاليلها الى كل خمسة جالونات من الماء الذي يستعمل لري النبات أو رشه وهذه هي الجرعة المعتادة .

أما إذا اشتد تركيز حامض الايندول أسيتيك فانهُ يقتل النبات . وكذلك المحلول الضعيف من المادة عينها يقف نمو النبات فيجعلهُ ناضجاً وهو ما زال فتاشياً [1] . على حين أن للمحلول الضعيف جدًّا من المادة نفسها تأثيراً عكسيًّا إذ يجعل النبات قصيراً

كيف تولد الصفات الممتازة في النباتات

أما إذا أريد توليد صفات ممتازة في النباتات فيستعمل نوع آخر من المواد الكيميائية السابقة الذكر ونخص منها اللحلاح colchicine وهو سم زعاف يستخرج من جذور الكركم الخريفي autumn crocus وكان هذا العقار يعدُّ في أحد العصور الغابرة من الادوية النافعة لعلاج داء النقرس . ويمكن الحصول عليه من الصيادلة كسائر المواد الكيميائية المشار اليها . وتكفي قطعة صغيرة منهُ للقيام بالعمل المقصود . فيذاب جرام من اللحلاح في نحو جالون من الماء المقطر . ويمكن تخفيفها أيضاً عند استعمالها . أو يستعمل عشرة ملليجرامات من اللحلاح ممزوجة بجرام من دهن الصوف lanolin fat

(١) الفتاشي — النزعة نحو الفناء — وهو الذي لا يستكمل نموه الطبيعي في حينه

فيكفي لكثير من التجارب ، إنما يجب إبعاد كل من ذينك المزيجين عن الايدي ، وتوجيه لأن كلاً منهما سم باطني خطر .

ويبدو لنا ان للحلاح مثل وظيفة انقسام الخلية في النبات . وهذا مما يسبب مضاعفة الصبغيات (الكروموسومات) في الأجزاء النباتية التي تستهدف له . والصبغيات هي عوامل الوراثة في النبات . وأي تغيير يحدث في عددها يغير أيضاً مميزات النباتات . وتتجلى هذه التغيرات في الجيل الثاني من حياتها . ويمكنك نقع البذور بضع ساعات أو أيام في محلول مخفف من اللحلاح وتجفيفها ثم بذرها كالمعتاد . ومن الصعب التكهن بدقة عن النتائج التي تعقب ذلك . ولكن مما لاشك فيه ان النبات ينمو نمواً مشوهاً فاسداً وينتج أزهاراً غريبة الشكل . والبذور التي تنتج من هذه الازهار هي التي قد تولد أوراقاً فائقة الحجم وأزهاراً وأثماراً ضخمة فيجب الاحتفاظ بهذه البذور لاعادة زرعها ويحتمل أن تكون عقيمة وربما تنتج نباتات تحمل ثماراً مبكرة قبل غيرها من جنسها أو تكون مقاومة للعطش أو تصير ذات مميزات جديدة . والوسيلة الوحيدة لمعرفة النتائج هي استمرارها .

وبدلاً من نقع البذور في المحلول المشار اليه يمكنك استعمال قطرات قليلة منه في الماء كرش يرش به النبات عدة مرات كل أسبوع فتحصل على النتائج عينها

ومن الوسائل العلمية الدائمة الاستعمال تربية طائفة من البذور أو النباتات التي لم تعالج بهذا العلاج الكيميائي (اللحلاح) وذلك في حوض من حياض الرقابة ليتسنى لمربيها المقابلة بين نتائج النباتات المعالجة وغير المعالجة .

كيف يستعمل اللحلاح وما نتائجه ؟

والمزارع الخيار في استعمال عجينة اللحلاح الممزوجة بدهن الصوف (لانولين) استعمالاً موضعياً ، وذلك للنباتات التي تكون قد أخذت في النمو فيدهن ساق النبات بمسواك مغموس بقليل من العجينة الكيميائية المذكورة آنفاً . أو وضعها على رؤوس النباتات أو على غصن من أغصانها فلا يلبث الجزء الدهون منها أن ينتفخ . وكذلك سرعان ما ينمو الغصن المعالج فيصير أضخم من سائر الأغصان وأسرع . ثم تحفظ البذور التي تنتج من هذا النبات لتصير وسيلة للوقوف على التغيرات التي تطرأ على الجيل التالي لها .

وتنبت الجذور من الساق في المكان الذي توضع فيه العجينة . وهذه هي التجربة التي يتمكن بها من نقل النبات من تربته ثم اعادة غرسه ثانياً . والجذور التي تتولد من اللحلاح تنمو في الارض .

عوض جندي

فهرس الجزء الثاني من المجلد السادس بعد المائة

٩٧ ألغاز العلم : لغز عصر الجمد ، لغز الأشعة الكونية ، لغز الركام : بقلم فؤاد صروف

١٠٤ على هامش الطب : للدكتور سليمان عزمي باشا

١٠٨ المرأة ثم المرآة : لاسماعيل مظهر

١١٣ مبدأ سيادة الدولة وقضية السلم العالمي : للاستاذ صلاح الدين الشريف

١١٨ القبل ذلك المجهول

١٢٢ في الكوخ (قصة) : من فاندا فاسيلفسكا

١٣٣ وصايا صحية : الفاكهة في الغذاء اليومي — الاحتياط في تناول الطعام

١٣٤ التراب يغزو الموت

١٣٨ أقوال ، قطعة شعرية : للرمّاح بن مَيّادة

١٣٩ تأثير الآلات الحديثة في حياة الفلاح المصري من حيث الثروة والعمل

١٤٤ مرسلات مع الريح — فوق الصخرة السوداء

١٤٨ الكهربا وتشخيص الأمراض — طرق ثابتة لا تكذبك ولا تضلك

١٥٢ قمة الدنيا — إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات إليها

١٥٥ عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب : للأب أنستاس مارى الكرملي

١٦١ وحدة الوجود أمذهب أم فكرة ؟

١٦٤ كل مرحاً تعش طويلاً

١٦٥ تاريخ يومك ما هو ؟ التقويم العالمي يكفيك إلى نهاية الدهر

١٧٠ مأثورات لابن المقفع : عن بيدبا الفيلسوف

١٧١ حذار من أمراض البرد

١٧٥ في مصر القديمة : للدكتور باهور لبيب

١٧٨ مفردات نباتية : لمحمود مصطفى الدمياطي بك

١٨٢ مكتبة المقتطف * الفتح مستمر . الطب التجريبي . مدخل الى دراستها . من حرب عالمية الى سلم عالمي . أعلام الاسلام : محمد عبده . أبو العلاء المعري فيلسوف الشعراء . كتب ظهرت : لوديم فلسفيان . ا ـ تاريخ ما قبل التاريخ . ب ـ الانوازيه . جـ ـ قصة البلشفين . قاعدة جديدة في التوسل والوسيلة .

١٩١ باب الاخبار العلمية * البحث الحديث وصوم الاقاني والمقاريب . من معجزات العلوم والفنون . المرموزات البعيدة . تعيين الاوقات الزراعية . أعداء المرموزات ومنافعها . كيف تولد الصفات الممتازة في النباتات . كيف يستعمل العلاج وما تأثيره ؟ لمرض جندي

عدد مارس من المقتطف

بعض موضوعات العدد

على هامش الطب : سليمان حزمي باشا
العالم العربي : اسماعيل مظهر
لحظة الصفر : قصة
الضمان الاجتماعي : مشروع يفرج من ناحيته : التاريخية والاجتماعية
الدبلوماسية البابوية : صلاح الدين الشريف
الريف والزراعة في الولايات المتحدة : وديع فلسطين
اصلاح الخط العربي : الدكتور متى عقراوي
الخطايا العشر : عشر خطايا اجتماعية تسبب الانقسامات والحروب
عدو الكذب : قصة : حسين المهدي ينام
ارتياد جزيرة العرب : للاستاذ محمد عبد الغني حسن
المخترعات الحديثة في خدمة المجتمع : محاضرة لاحمد زكي بك
مفردات النباتات الطبية : للاستاذ محمود مصطفى الدمياطي بك
مكتبة المقتطف
باب الأخبار العلمية

وغير ذلك من المقالات والبحوث ، مدبجة بأقلام كبار الكتاب في العالم العربي